دولة الإمارات العربية المتحدة
دبي

مجلة كلية
الدراسات الإسلامية والعربية

مجلة علمية محكّمة

العدد السادس والثلاثون
ذو الحجة ١٤٢٩ هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

مَجلَّـــة
كُلِّيَّة الدِّراسات الإسلاميَّة والعربيَّة

مجلة علمية محكَّمة

نصف سنويَّة

العدد السادس والثلاثون

ذو الحجة ١٤٢٩ هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

رئيس التَّحرير

د. أحمد حساني

هيئة التَّحرير

د. أسماء أحمد العويس

د. ماجد عبد السلام إبراهيم

د. الرفاعي عبد الحافظ

د. الشريف ميهوبي

ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩X

تفهرس المجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

المحتويـــــــات

● **الافتتاحية**

رئيس التحرير ١٥-١٧

● **المَسْألَة في البَسْمَلَة**

تأليف الإمام أبي الحَسَن عليّ بن سُلْطان محمّد الهرويّ ثمّ المكيّ الحنفيّ، الشهير بالملاّ عليّ القاري (ت١٠١٤هـ) دراسَة وتَحْقيق

د: محمّد بن إبراهيم بن فاضل المشهدانيّ ١٩-٥٤

● **السنة مصدر للثقافة الإسلامية**

د. شيخه حمد عبد الله العطيه ٥٥-٩٨

● **الدرر المصنوعة في بيان ما رواه الصحابة عن التابعين من الأحاديث المرفوعة**

أ. د. عبد العزيز الصغير دخان ٩٩-١٤٦

● **إشراق المعالم في أحكام المظالم للشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله تعالى (١١٤٣ هـ) دراسة - وتحقيق - ومقارنة**

د. منير عبد الله خضير ١٤٧-١٩٢

● **سبل تنمية أموال القصَّر وتثميرها دراسة فقهية مقارنة بقانون الأحوال الشخصية الإماراتي**

د. سيد حسن عبد الله ١٩٣-٢٤٤

● **دور التربية الإسلامية في الوقاية من الجريمة**

د. أحمد ضياء الدين حسين ٢٤٥-٢٨٦

● **الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيديّ بين الموضوعيّة والتحيُّز دراسة في موثوقيّة بعض كُتب التراجم**

د. حسن خميس الملخ ٢٨٧-٣٣٠

● **المثال النَحويّ المصنوع فلسفته النَحويَة وأبعاده التربويَة**

د. سهى فتحي نعجة ٣٣١-٣٦٨

● **مِيْزَانُ الذَّهَبِ في صناعة شِعْرِ الْعَرَبِ للْهاشميِّ (ت١٩٤٣م): قراءة تحليلية ونقدية**

د. صبري فوزي عبدالله أبو حسين ٣٢٩-٤٢٢

● **The Islamic View of Byzantium During The Period of The rusades**

Dr. M. El-Hafiz al-Nager. ..... 5 - 34

الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيديّ
بين الموضوعيّة والتحيُّز
دراسة في موثوقيّة بعض كتب التراجم

د. حسن خميس الملخ *

* أستاذ النحو العربيّ المشارك في جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخص

هدف البحثُ إلى دراسة موثوقيّة لبعض كُتُبِ التراجِمِ في الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيديّ بين الموضوعيّةِ والتحيُّز؛ ذلك أنَّ ثمة اضطراباً لافتاً في الترجمة له يظهرُ بوضوحٍ في عدم التوازنِ الكَمّيّ في الترجمة له، فالمعلومات عن الخليل تزدادُ كُلّما تأخَّر عصرُ المترجِم، فمن أين للاحق ما لم يعرفْه المتقدّمُ عليه عن المترجَم عنه من حيث نسبه، وأصله، ومولده، ومذهبه الديني، وأخباره ورحلاته، وعلاقته بالأمويّين والعباسيّين؛ فدرس مظاهر التحيُّز في الترجمة له بمنهجٍ تاريخيٍّ نقديٍّ في تحليل المعلومات وتمحيصها مع ربطِها باتجاه مُنشئ الترجمة، ومذهبه، وموقفه من الخليل؛ لاستخلاص أسبابِ عدم الموضوعيّة أحياناً في الترجمة له؛ فأكَّدَ البحثُ وجودَ أساطيرَ لا أساس لها من الصحة في الترجمة له، كما أكَّدَ ضرورةَ التسلُّح بحسٍّ تاريخيٍّ نقديٍّ في استقاء المعلومات عنه، وتحليلها، لأنَّ شخصيَته الاستثنائيّة المميّزة في اللغة والنحو والعروض والزُّهد جعلتْ بعضَ الفرق والأمم تسعى إلى سَلْكِه بين رجالها الذين تفخر بهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمةَ ظاهرة لافتة في بعض كتب التراجم عامةً، وتراجم النحاة واللغويّين منها خاصّةً، تتمثّلُ في عدم التوازن الكَمّيّ في المعلومات بين كُتب التراجم للترجمة الواحدة لأسباب مختلفة؛ فقد يُترجِمُ أحدُ الكتب لِنَحويٍّ ما بعشر معلومات عنه، في حين يُترجم كتابٌ آخر للنحويّ نفسه بخمسين معلومةً عنه، وهذه الظاهرة قد تبدو لطول إلفنا بها طبيعيّة مسَوَّغة بمنهج مؤلِّف كتاب التراجم بين الإيجاز والتطويل، لكنَّها ليست كذلك دائماً عندَ ربط عدم التوازن الكمّيّ ببُعدين اثنين:

أوّلهما: البعد التاريخيّ، فكيفَ يتهيّأ تقديم خمسين معلومةً مثلاً عن نحويٍّ ما بعد عشرة قرونٍ من وفاته، في حين لا تقدِّم أقربُ المصادر إلى ذلك النحويّ سوى النزر اليسير من تلك المعلومات، فمن أينَ للمتأخر ما لم يعرفه المتقدِّمون؟

وثانيهما: البُعد التوَثُّقيّ، فكيفَ يتسنى لنا التحقُّق من مصداقية معلومات كتب التراجم إذا كان عدم التوازن الكمّيّ يتخذ شكل الاختلاف والخلاف في الاسم، والنسب، وسنة الوفاة، وتحديد الشيوخ والتلاميذ، ونسبة الأعمال العلميّة، والأقوال، والآراء، إلى غير ذلك من مظاهر التبايُن التي تتجلى بوضوح بين معظم كُتب التراجم.

ويبدو أنَّ هذين البُعدين يشيران - إلى حدٍّ ما - إلى التحيّز لشخصية المترجَم له، أو عليه، وهما يدلّان على اضطراب في تحرّي الموثوقيّة في المعلومة، والموضوعيّة في الترجمة. وأكثر ما يظهر هذا في الترجمة للشخصيّات المهمة المؤثّرة في تاريخنا السياسيّ والثقافيّ والاجتماعيّ قديماً وحديثاً، ومن هذه الشخصيات شخصية الخليل بن أحمد الفراهيديّ؛ فقد بَهَرَ بشخصيّته الاستثنائيّة في تاريخنا النحويّ والأدبي والثقافيّ المؤرخين والنحاة واللغويّين ومؤلفي كُتب التراجم على تنوّعهم، وشَغَلَ الناسَ والدُّنيا، فلم يكدْ قرنٌ يمرُّ على وفاته حتى صار مَضْرِبَ المثَل في أقواله وأفعاله ومواهبه العقليّة.

قال أبو الطيّب اللغويّ (ت٣٥١هـ/٩٦٢م): "ومن شُهرة الخليل بن أحمد وتقدّمه في

العلم، ضَرَبَ به العلماءُ والشُّعراءُ الأمثالَ، وذكروه في شعرهم، قال إسحاق الموصليّ يهجو الأصمعيّ، وحسبُكَ بالأصمعيّ:

أليسَ من العجائبِ أنَّ كلباً ... أُصَيْمِعَ باهليّاً يستطيلُ

ويزعمُ أنَّه قد كانَ يُفتي ... أبا عمرٍو ويسألهُ الخليلُ[1]

وقال أبو تمّام حبيب بن أوس الطائيّ يهجو عيّاش بن لُهَيعة الحضرميّ:

فلو نَشَرَ الخليلُ له لعفَّتْ ... بلادتُه على فِطَنِ الخليلِ[2]

لقد تحوّلَ الخليلُ بن أحمد بشهرته في سيرته وسلوكه وعلمه وذكائه إلى حديثٍ ثقافيّ يتبادله المثقَّفون من شعراءَ وأدباءَ ونحاة ولغويّين وعلماء وفقهاءَ ومُحدِّثين وزهّاد ومؤرخين، كلٌّ حسْبَ زاويته العلميّة ورؤيته الفكريّة، تفرّقُهم الاهتمامات العلميّة، والميول المذهبيّة، ويجمعُهم الثناءُ عليه، حتى قال فيه حمزة بن الحسن الأصبهانيّ (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م): "وما ظنُّكم برجلٍ تولّاه كلُّ جيلٍ، ومالت إليه كلُّ فرقة، حتى حلَّ في صدورهم، فمنحوه الذِّكْرَ الجميلَ بألسنتهم"[3]. لهذا سعى هذا البحثُ إلى دراسة موثوقيّة المادة العلميّة التي قدَّمتْها بعضُ كُتبِ التراجم من حيثُ الموضوعيّة والتحيّز بحسٍّ تاريخيّ نقديّ في تحليل الروايات ونقدها، فتقيَّدَ بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما صورة عدم التوازن الكمّيّ في الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيديّ في بعضِ كُتبِ التراجم؟
- كيفَ يمكن تصنيفُ الاتجاهات المنهجيّة في تلك الكُتب؟
- ما مظاهر التحيُّز وعدم الموضوعيّة في ترجمة تلك الكُتب للخليل؟

---

(١) مراتب النحويّين، أبو الطيب اللغويّ، ص ٦٨-٦٩.

والأصمعيّ من تلامذة الخليل بن أحمد، وقد توفيَّ أول القرن الثالث الهجريّ في حدود سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م).

يُنظَر: نزهة الألبّاء، ابن الأنباريّ، ص ٩٢، ١٠٠.

(٢) يُنظر: مراتب النحويّين، أبو الطيّب اللغويّ، ص ٦٩-٧٠. وقد توفيَّ أبو تمّام في حدود سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م.

(٣) التنبيه على حدوث التصحيف، حمزة الأصبهاني، ص ١٢٩.

- ما أسباب عدم الموضوعيّة فيها؟

والكُتب التي توقَّفَ عندها البحثُ من المصادر التي ترجمت للخليل بن أحمد هي:

١ - مراتب النحويّين

٢ - أخبار النحويّين البصريّين

٣ - طبقات النحويّين واللغويّين

٤ - الفهرست

٥ - نور القبس

٦ - تاريخ العلماء النحويّين

٧ - نزهة الألبّاء

٨ - إنباه الرُّواة

٩ - معجم الأدباء

١٠ - وَفيات الأعيان

١١ - إشارة التعيين

١٢ - سِيرَ أعلام النبلاء

١٣ - مسالك الأبصار

١٤ - الوافي بالوفيات

١٥ - مرآة الجِنان

١٦ - البُلغة

١٧ - بغية الوعاة

١٨ - تحفة الأديب

١٩ – رسالة ولاية الخليل بن أحمد[٤]

٢٠ – قاموس الرجال[٥]

وهذه المصادرُ مرتَّبة ترتيباً تاريخيّاً حسبَ سنة وفاة المؤلِّف، جاءَ اختيارها على قدر الوسعِ في الوصول إليها حسبَ المعيارين الآتيين:

المعيار الأول: التنوّع الزمانيّ، فهي تبدأ من كتاب أبي الطيّب اللغويّ المتوفَّى سنة ٣٥١هـ، وتنتهي بكتاب قاموس الرجال لمحمد تقي التستريّ المتوفَّى سنة ١٤١٦هـ.

المعيار الثاني: التنوّع التخصصيّ، ففيها كُتبٌ خاصّة بالنحاة واللغويّين، ككتاب "مراتب النحويّين" و"إنباه الرواة"، و"البُلغة"، و"بُغية الوعاة". وفيها كتب تراجم عامة التخصّص، ككتاب "وفيات الأعيان"، و"الوافي بالوفيات"، و"مرآة الجنان".

كما أنَّ فيها تنوّعاً في التخصّص الغالب على مؤلفيها، فالسيرافيّ مؤلِّف كتاب "أخبار النحويّين البصريّين" إمام من أئمة النحو، والذهبيّ مؤلِّف كتاب "سِيَر أعلام النبلاء" إمام في تراجم المحدِّثين، واليافعيّ مؤلِّف كتاب "مرآة الجنان" مؤرخ، والفيروز آباديّ مؤلِّف كتاب "البلغة" معجميّ من أئمة المعجميّين.

كما أنَّ فيها تنوّعاً مذهبيّاً، فمؤلِّف رسالة ولاية الخليل بن أحمد إباضيٌّ، ومؤلِّف قاموس الرجال شيعيٌّ.

ووَحْدة المعالجة العلميّة الأوليّة هي "الكلمة" بالمفهوم الإملائيّ، فالكلمات الآتية تُعدُّ كلٌّ واحدة منها كلمة: (لن، منه، حَضَرَ، رأيتُ، قرأتُه، كتابه) حسْبَ الطريقة التي يُحصي الحاسوب فيها عدد الكلمات. وكلُّ كلمة تُعدُّ معلومة جزئيةً غالباً؛ ذلك أنَّ الفعل والاسم يدلُّ كلٌّ واحد منهما على معنى مستقلٍ بالفهم في أصل الوضع، ويدلُّ الحرف على معنى غير

(٤) رسالة همزة أمْحَمّد وكسْر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد، أطفيّش (ت١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م). وسيُشار إليها لاحقاً هكذا: ولاية الخليل بن أحمد، أطفيّش،. وهو ليس مصدراً بمفهوم القِدم، لكنّه رسالة على منوال القدماء خاصة في جلّها بالخليل بن أحمد، وتمثِّل وجهة نظر الإباضيّة.

(٥) قاموس الرجال، التستريّ (ت ١٤١٦هـ/١٩٩٥م) وهو ليس مصدراً بمفهوم القِدم لكنّه في حكم المصدر من حيث الشمول والموسوعيّة ونقل ما في الكتب القديمة المطبوعة والمخطوطة، ولا سيّما كتب الشيعة.

مستقل مقترن بغيره؛ فيُضحي لكلٍّ واحدٍ من أقسام الكلمة في العربيّة معنى؛ لهذا قمتُ بإحصاء عدد كلمات ترجمة الخليل بن أحمد في كلٍّ واحد من المصادر المُشار إليها آنفا، واعتمدت الرقم الناتج بعد اطّراح الاستطراد الذي أقرَّ به المؤلِّف، فاليافعيّ ترجمَ للخليل بن أحمد في ١١٨٧ كلمة، حذفتُ منها ٢٦٧ كلمة؛ ذلك أنَّه استطردَ إلى قصة خياليّة لا علاقة لها بترجمة الخليل بن أحمد، ثمّ رجع إلى الترجمة بدليل قوله بعد ذلك: "رجعنا إلى ذِكر الخليل"(٦).

وضربتُ صفحاً عن طول الترجمة من حيث عدد الصفحات؛ لأنَّ عدد الصفحات في الطباعة الحديثة مُضلِّل غيرُ دقيق الدلالة بسبب اختلاف المحققين في الحواشي والتعليقات ونوع خطّ الطباعة وحجمه؛ فترجمة الخليل بن أحمد في كتاب "تاريخ العلماء النحويّين" تقع في اثنتي عشرة صفحةً مع أنَّ عدد كلماتها ٥٤٥ كلمة، في حين تقع ترجمة الخليل بن أحمد في كتاب "الفهرست" في صفحتين فقط مع أنَّ عدد كلماتها ٥٥٤ كلمة.

واستعنتُ بالدراسات الحديثة عن الخليل بن أحمد، مثل دراسة الدكتور مهدي المخزوميّ، والدكتور جعفر عبابنة، والدكتورة رحاب عكاويّ، عدا الدراسات التي عرضت للخليل بن أحمد في سياق تأريخها للنحو العربيّ ومدارسه وظواهره.

(٦) مرآة الجنان، اليافعيّ، ج١، ص٢٨٣.

عدم التوازن الكمّيّ: الصورة والتحليل

يُظهِرُ الجدول الآتي صورةَ الترجمة للخليل بن أحمد حسبَ عدد الكلمات مقرونة باسم الكتاب المصدر ومؤلِّفه وسنة وفاته.

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلِّف	سنة الوفاة	عدد الكلمات
١ –	مراتب النحويّين	أبو الطيّب اللغويّ	٣٥١	٣٠٣
٢ –	أخبار النحويّين البصريّين	السيرافيّ	٣٦٨	٢٣٠
٣ –	طبقات النحويّين واللغويّين	الزبيدي	٣٧٩	٨٢٣
٤ –	الفهرست	النديم	٣٨٠	٥٥٤
٥ –	نور القبس	المرزبانيّ	٣٨٤	٣٣٦١
٦ –	تاريخ العلماء النحويّين	القاضي المفضّل	٤٤٢	٥٤٥
٧ –	نزهة الألباء	ابن الأنباريّ	٥٧٧	٣٥٨
٨ –	إنباه الرواة	القفطيّ	٦٢٤	٧٨٤
٩ –	معجم الأدباء	ياقوت الحمويّ	٦٢٦	٢٨٤١
١٠ –	وفيات الأعيان	ابن خلكان	٦٨١	٨٦٩
١١ –	إشارة التعيين	اليماني	٧٤٣	٦٧
١٢ –	سير أعلام النبلاء	الذهبيّ	٧٤٨	٢٤٠
١٣ –	مسالك الأبصار	ابن فضل الله العمريّ	٧٤٩	٦١٩
١٤ –	الوافي بالوفيات	الصفديّ	٧٦٤	١٥٢٧
١٥ –	مرآة الجنان	اليافعيّ	٧٦٨	٩٢٠
١٦ –	البلغة	الفيروز أبادي	٨١٧	١٤٠
١٧ –	بغية الوعاة	السيوطيّ	٩١١	٧٦٧
١٨ –	تحفة الأديب	السيوطيّ	٩١١	٣١١٦
١٩ –	ولاية الخليل بن أحمد	أطفيش	١٣٣٢	٢١٦٥
٢٠ –	[illegible]	التستريّ	١٤١٦	٥٣٣

يتبيّنُ من الجدول أنَّ أطول ترجمة للخليل هي الترجمة التي أوردها المرزبانيّ المتوفَّى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م في كتابه "المقتبس" بعد أن اختصرها الحافظ اليغموريّ ضمن مختصر المقتبس المطبوع باسم "نور القبس"، وهي تقع في ٣٣٦١ كلمة، في حين أنَّ أصغر ترجمة هي الترجمة التي أوردها اليماني المتوفَّى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م في كتابه "إشارة التعيين"، وهي تقع في ٦٧ كلمة، أيْ أنَّ ترجمة المرزبانيّ للخليل بعد اختصارها تفوقُ ترجمة اليمانيّ بخمسين مرة تقريبا، مع أنَّ اليماني متأخر عن المرزبانيّ ثلاثة قرون ونصف قرن تقريباً.

يمكن تسويغ صِغر ترجمة اليماني للخليل بأنَّه سعى إلى تصنيف كتاب مختصر يكتفي بالإشارة؛ ليكون "على سبيل الاختصار متجنِّبا في الإطالة والإكثار"[٧]، لكنَّ تفوق المرزبانيّ على جميع من تقدَّمه أو تأخر عنه ممّن شملهم هذا البحث مسألة فيها نظر، وتسترعي الانتباه، فلماذا لم يأخذ بعض المتأخرين كلّ ما أورده المرزبانيّ كالسيوطيّ الذي أكثر من النقل عنه في "تحفة الأديب"، ويُتْبِعونه بما لديهم من الزيادات والفوائد، فيكون العلمُ تراكميّاً؟

إنَّ الإجابة التي أميلُ إليها أنَّ كتاب المرزبانيّ كتاب في أخبار النحاة لا في تحقيق تلك الأخبار، وانتقاء ما هو صحيح منها وَفق رؤية منهجيّة مطّردة؛ ذلك أنَّ المرزبانيّ قد حوَّل شخصية الخليل من شخصيّة نحويّة ولغويّة وصرفيّة وعروضيّة في الأساس إلى شخصيّة أدبيّة، مدارُ أخبارها على الشعر ونقده؛ لهذا كان قد أورد في ترجمة الخليل مائة وثلاثةً وعشرين بيتا مع إضاءات سياقيّة حولها، ففيها نكتٌ من المعاني، وتحديد لمناسبة الشعر وسياقه غالبا. وحذفُ هذه الأشعار مع ما حولها من نكتٍ يختزل المادة إلى النصف أو أقل.

كما أنَّه توسَّع في رسم معالم زهد الخليل في أقواله وأشعاره، وتمنُّعه على أُولي الأمر بدافع التوكّل على الله سبحانه وتعالى في العيش والرزق.

فمن عدم التحقُّق من صحة الأخبار أنَّه قال: "دخلَ أعرابيٌّ مسجد البصرة، فطاف على الحِلَق، وسمع ما يقولون حتى صار إلى حلقة الخليل، فسمعهم يتذاكرون النحوَ والشعر حتى أفضَوا إلى دقيق النحو والعروض، فقام عنهم، وقال:

ما زالَ أخْذُهم في النحوِ يُعجِبُني ... حتى تعاطَوا كلامَ الزّنجِ والرُّومِ

حتى سمعتُ كلاماً لستُ أعرفُه ... كأنَّه زجَلُ الغربانِ والبُومِ

رفضتُ نحوَهم والله يعصمُني ... من التقحُّمِ في تلك الجراثيمِ[٨]

(٧) إشارة التعيين، اليماني، ص٣.

(٨) نور القبس، المرزبانيّ، ص٥٨.

وهذه القصةُ معروفةٌ مشهورةٌ متداولة[٩] في الاشتقاق وتمارين التصريف، حدثتْ بينَ معاذ الهرّاء وعبد الملك بن مروان الذي جعلَه المرزبانيّ أعرابياً، وهو خليفة أمويّ، قال القفطيّ: "وكان أبو مسلم (الهرّاء) مُؤَدِّبَ عبد الملك بن مروان قد نظرَ في النحو، فلما أحدثَ الناسُ التصريفَ لم يُحسنْه، وأنكرَه، فهجا أصحاب النحو، فقال:

ما زالَ أخْذُهم في النحوِ يُعجبُني ... حتى تعاطَوا كلامَ الزّنجِ والرُّومِ

لمّا سمعتُ كلاماً ليسَ يعجبني ... كأنّه زجَلُ الغربانِ والبُومِ

رفضتُ نحوَهم والله يعصمُني ... من التقحُّمِ في تلك الجراثيمِ

فأجابه معاذ الهرّاء أستاذ الكسائيّ:

عالجتَها أمرَدَ حتى إذا ... شبْتَ ولم تعرفْ أبا جادِها

سمّيتَ من يعرفها جاهلاً ... يُصدِرُها من بعدِ إيرادِها

سهّلَ منها كلَّ مستصعَبٍ ... طود عليه فوقَ أطوادِها"[١٠]

ثم ذكر القفطيّ المسألة، وهي في بناء: "يا فاعل افعلْ" من "تؤزُّهم أزّاً"[١١].

وقد قيلَ إنَّ هذه الأبيات قد قيلت في الكسائيّ، وفي رواية: في الأخفش الأوسط من غير إثبات القصة والمسألة إلا مع أبي مسلم الهرّاء[١٢].

والأشعار التي نسبَها المرزبانيّ للخليل فيها نظرٌ، ويبدو فيها الافتعال بمظاهرَ متعددة نتجاوزها لأنَّها تحتاج إلى بحث مستقلٍّ، منها أنَّ بعضَ الأشعار التي نُسبت للخليل نُسبتْ لغيره، كقوله:

أبلغا عني المنجّمَ أنّي ... كافرٌ بالذي قضَتْه الكواكبْ

عالمٌ أنَّ ما يكونُ وما كا ... نَ بحُكمٍ من المُهَيمنِ واجبْ[١٣]

(٩) يُنظر: طبقات النحويّين واللغويّين، الزّبيديّ، ص١٢٥-١٢٦.

(١٠) إنباه الرواة، القفطيّ، ج٣، ص٢٩٢.

(١١) ينظر: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٢-٢٩٣.

(١٢) ينظر: تحفة الأديب، السيوطيّ، ج١، ص٦٥، ج٢، ص٦٨٦.

(١٣) ينظر: نور القبس، المرزبانيّ، ص٦٥.

فالبيتانِ مع اختلاف يسير في الرواية يُنسَبانِ للشافعيّ[١٤]؛ فالشعر المنسوب للخليل -وأكثره في نور القبس- بحاجةٍ إلى تمحيص دقيق[١٥].

وقد نسب المرزبانيّ للخليل أربعةَ أبياتٍ في تمنُّعه على سليمان بن حبيب بن المهلب والي الأهواز، ليس لشيءٍ إلا لأنَّ سليمان بدأ بعطاء صديقَي الخليل المصاحبين له قبلَه[١٦]، وهذا لا يتناسب مع الزهد الذي حرَصَ المرزبانيّ على إبرازه في الترجمة للخليل، ولا سيما أنَّ الخليلَ رحلَ بعد ذلك عن الأهواز، كما ذكر المرزبانيّ، وردَّ عَطيَّةَ أميرها، حتى إنَّه تمثَّل بأبيات من الهجاء، ثم هجاه بما لا يليق[١٧].

ومن الحرص على إبراز شخصيّة الخليل شاعراً أنَّه ذكر عن ابن المعتزّ رأياً نقدياً في استحسان شعر للخليل في وصف الدنيا وترك الحرص على ما فيها[١٨].

فإذا أشَحْنا النظر عن هذا البناء الضخم لشخصية الخليل الأدبيّة الشعريّة، وجدْنا أنَّ عدد الكلمات -بشكل عام- يتناسبُ مع اتجاه المؤلف في الترجمة وهدفه منها؛ فالذهبي حرص على إبراز شخصيّة الخليل محدِّثا، فلم يجد غير ما أثبت، كما لم يجد التستريّ في إبراز تشيّع الخليل غير ما أثبت، كذلك قطب الأئمة أطفيش في السعي إلى إبراز شخصيّة الخليل الإباضيّة، على حين يمكن أن توصَف ثلاث ترجمات بالشمول، هي: ترجمة ياقوت الحمويّ، والصفديّ، والسيوطيّ في تحفة الأديب.

ومن حيث الأسلوب يمكن أن توصَف ترجمة ابن فضل الله العمريّ للخليل بأنَّها ترجمة إنشائيّة الأسلوب، انطباعيّة الأفكار، هدفها زخرفة المباني لا تحميل الكلمات المعاني، كقوله: "هو من أغصان الأدب ووَرِيقها، ورشْفِ ألسنة العرب وريقِها، وهو إمام القوم، ولسان القول، رأس أهل التعليم، والخليل وحاسده الكليم، ومؤسس القواعد، وإن لم يكن الخليل

(١٤) ينظر: ديوان الشافعيّ، ص٥٤.

(١٥) يُنظر ما جمعه حاتم الضامن من شعر الخليل بن أحمد الفراهيديّ في كتابه: عشرة شعراء مقلون، ص ٢٢٢-٢٤٠.

(١٦) ينظر: نور القبس، المرزبانيّ، ص٦٦.

(١٧) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٧.

(١٨) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٣-٦٤.

إبراهيم، ومستنبط العلم الذي ما سُبِق إليه، ولا وقع على خاطر امرئ قبله، افترع منه العذراء، واخترع منه ما ضبط به الشعراء، أتى منه بعلمٍ جليل، وأحسنَ إحساناً أصبح فيه الناسُ ضيوفَ الخليل"(١٩).

وثمة ملحوظتان تطالانِ التراجمَ عامة، إذا رضينا ترجمة الخليل أنموذجا:

أولاهما: أنَّه يوجد اضطراب في بناء علاقات الشخصيّة المترجم لها، فالخليل صاحب فكرة معجم العين، وثمة كلام طويل في علاقة الليث بن نصر، وغير به، فأين تُذكَرُ قصة كتاب معجم العين؟ في ترجمة الخليل كما فعل النديم(٢٠)، أم في ترجمة الليث بن نصر كما فعل اليماني(٢١)؟

على ضوء هذه الملحوظة يبدو السيوطيّ متميزاً في فنِّ التراجم وإدراك العلاقات، إذ ذكر القصة في ترجمة الخليل بن أحمد، وعندما عرض إلى ترجمة الليث بن نصر أشار إلى أنَّ ثمة علاقة تربط بينهما ذكرها في ترجمة الأول منهما وهو الخليل، فقال: "وقد مرَّ في ترجمة الخليل شيءٌ ممّا يتعلقُ به"(٢٢).

وأمّا ثانيتُهما، فهي ملحوظةٌ منهجيّة أحسبُ أنَّها مهمة وخطيرة، مؤدّاها الإجابة عن سؤال: (ما الذي ينبغي أن يكتَبَ في الترجمة؟) فكتبُ التراجم عامة تكتبُ الأخبار ولا تحلِّلُ الإنجازات، فلا نستطيع أن نحدد مكانة المترجم له بدقة، فهي لا تتحدّث عن إضافاته العلميّة بمعنى ذِكر أهمِّ آرائه النحويّة والصرفيّة واللغويّة، وأثره الحقيقيّ فيمن بعده، وتأثّره علميّاً بمسائل محددة بمن قبله، بل تبدو كتباً في صناعة نماذج الاقتداء، الهدف منها تقديم صورة لأنموذجٍ علميّ باسْم "الأخبار الصالحة والنوادر المفيدة"؛ لذا كان من الاتجاهات الواضحة في الدراسات اللغويّة في العصر الحديث دراسةُ أعلام النحو واللغة برسْم معالم حياتهم العلميّة، وتحليل آرائهم ومواقفهم العلميّة، وتبيين مكانة المترجم له بين العلماء وموقفهم منه قبولا ورفضا، تأثيراً وتأثُّرا، فكانت الدراسات الحديثة تقف طويلاً عند اختلاف مؤلفي كتب التراجم في الترجمة لكثير من العلماء، من حيث اسمه، ونسبه، ومذهبه، ومولده،

(١٩) مسالك الأبصار، ابن فضل الله العمريّ، ج٧، ص٨١.

(٢٠) ينظر: الفهرست، النديم، ص٦٧.

(٢١) ينظر: إشارة التعيين، اليماني، ص ٢٧٧.

(٢٢) بغية الوعاة، السيوطيّ، ج٢، ص٢٧٠

ووفاته، وأصله، وشيوخه، وتلاميذه، وكتبه، ورحلاته، وأقواله، و... إلخ، وهذا الاختلاف إن لم يكن دليلاً على الافتعال أو عدم التدقيق في الأخبار والروايات، فهو دليل على سمة الانطباعيّة؛ إذ تقدِّم كتب التراجم عامة انطباع مؤلفيها عن الخليل، والانطباع حكمٌ مطلقٌ ينطلقُ منه بعضُ المترجمين، كالانطلاق من أنَّ الخليل شيعيٌّ؛ فيصبح هدف المؤلف إثبات هذا الانطباع المطلق، لا جمع المعلومات، ثم تحليلها، فإن أوصلتْ إلى هذا الانطباع، تحوَّلت إلى معرفة علميّة، وإن لم توصلْ، أضحى عدم تبنيّ الانطباع واجباً علميّا.

مظاهر التحيُّز في الترجمة للخليل

أحسبُ أنَّ مصطلح (التحيُّز) أدقُّ من مصطلح (الافتعال)؛ لأنَّ التحيُّز يدلُّ على مجانبة الصواب مدحاً أو ذمّاً، سلباً أو إيجاباً، من غير أن يدلَّ بالضرورة على الحرص على الافتعال واختلاق ما لم يكن من الروايات والأخبار، بل يدلّ على موقف سابقٍ على العرض والتناول والاستنتاج، لكنَّ الافتعال يدلّ على اتهام بالاختلاق والكذب، ونحن لا نسعى إلى اتهام أحدٍ من المؤرخين أو المترجمين للخليل بن أحمد؛ لأنَّنا نعي تماماً أنَّ جمهور المترجمين يسعون إلى جمع المعلومات أكثر من سعيهم إلى تمحيصها، فهم لا يكفلون صحة المعلومات لكي يكونوا أُمناء صادقين في نقل ما يعرفون إلى من يهتمُّ بأمر تدقيق المعلومات والتوثُّق من صحّتها، وهم بهذا الجانب يختلفون عن زملائهم علماء الحديث الذين يحرصون على الجرح والتعديل، أي أنَّ منهم من قد ينقل خبراً لا يمكن أن يشكَّ هو نفسه في عدم صحته بدليل أنَّه قد تتفلتُ منهم عبارات هنا، وهناك تشير إلى حسٍّ نقديٍّ مدقّق.

والتحيُّز في الترجمة للخليل يأخذ مظاهرَ مختلفة متباينة في نسبه وأصله ومولده ومذهبه وأخباره ووفاته ورحلاته، حسب التفصيل الآتي:

نسبه وأصله

لم يختلف المترجمون للخليل في اسمه ولا في اسم أبيه ولا في نسبته إلى الفراهيد، فهو الخليل بن أحمد الفراهيديّ أو الفرهوديّ على اختلاف النحاة والصرفيّين في النسب إلى الجمع[٢٣] بإهمال أنَّ المزّيّ (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) أغربَ، فقال: "ويُقال: الباهليّ" بعد أن أقرَّ

(٢٣) أشار أبو حيان الأندلسيّ إلى الخلاف في النسب إلى هذه الكلمة نفسها.
ينظر كتابه: ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، ج٢، ص٦٢٩.

بأنَّه فراهيديّ أزديّ فيسقط إغرابه لفرادته، أو لعله وهمٌ[٢٤]، لكنَّهم اختلفوا في زيادات النسب، فذهب جمهورهم إلى أنَّه أزديٌّ، قال أبو الطيب اللغويّ: "وكان من أنفسهم –يقصد الأزديّين– صحيحَ النسب، معروفَ الأهل"[٢٥]، واختلفوا في أصل الفراهيد، فقال أبو حاتم: "الخليل بن أحمد الفرهوديّ من الفراهيد من اليمن"[٢٦]، وجعل المرزبانيّ الفراهيد من أهل عُمان[٢٧].

وهذا الخلاف يسير؛ لأنَّ كلمة (فرهود) عُمانيّة بمعنى ولد الأسد[٢٨]، وهم يسكنون منطقة الباطنة في عُمان، وهي في المفهوم التاريخيّ قريبة من اليمن؛ ذلك أنَّ الخليل بن أحمد قد "ولد في بلدة وِدام الساحل بولاية المصنعة –منطقة الباطنة– في سلطنة عُمان"[٢٩] ومع أنَّ قبيلة الأزد ممتدة بفروعها في المنطقتين إلا أنّ الخليل نفسه صرَّح بأنَّه من عُمان، فقال: "قدمتُ من عُمان"[٣٠]، وعندما افتخر العَوتبيّ العمانيّ بأعلام عُمان عَدَّ الخليل منهم[٣١].

لكنَّ حمزة بن الحسن الأصبهانيّ (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م) جعل الفراهيد من بقايا الفُرس في اليمن، فقال: "ومن الفرس كان أصلُه؛ لأنَّه من فراهيد اليمن، وكانوا من بقايا أولاد الفُرس الذين فتحوا بلاد اليمن لكسرى، وكان جَدُّ الخليل من أولئك، فضمَّه إلى وَهرَز لتدبير جيشه، وحصل باليمن فتناسل بها أولادُه، وصاهروا قبائل الأزد، فادَّعاهم الأزد، وبالبلديّة والقرابة ضمَّ الخليلُ سيبويه إلى نفسه حتى خرَّجه"[٣٢].

---

(٢٤) ينظر: تهذيب الكمال، المزّيّ، ج٨، ص٣٢٦.

(٢٥) مراتب النحويّين، أبو الطيب اللغويّ، ص٥٦. وينظر: أخبار النحويّين البصريّين، السيرافيّ، ص٥٤. ونور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦. ونزهة الألباء، ابن الأنباريّ، ص٤٥.

(٢٦) ينظر: مراتب النحويّين، أبو الطيّب اللغويّ، ص ٥٤.

(٢٧) نور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦.

(٢٨) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (فرهد).

(٢٩) النحو العربيّ، صلاح روّاي، ص ١٦٣.

(٣٠) نور القبس، المرزبانيّ، ص ٥٦.

(٣١) ينظر: كتاب الإبانة في اللغة العربيّة، العَوتبيّ، ج١، ص٣٦.

(٣٢) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج ٣، ص١٢٦١.

وهذا القولُ مردود؛ لأنَّ حمزة الأصبهانيّ كان "رقيعاً ناقصَ العقلِ غيرَ ثَبت"[٣٣]، وذكر القفطيّ أنَّه "كان يُنسَبُ إلى الشعوبيّة، وأنَّه يتعصّبُ على الأمة العربيّة"[٣٤]، وهذا القول غير بعيد عن الصواب؛ ذلك أنَّه ذكر هذا الكلام في سياق الحرب الشعوبيّة حتى إنَّه سمَّى احتلال الفُرس بلادَ اليمن فتحاً؟!، وفسَّرَ علاقة سيبويه -وهو من أصل فارسيّ- بشيخه الخليل تفسيراً شعوبيّاً بناه على التحيُّز العِرقيّ.

ويبدو أنَّ المرزبانيّ كان يقصدُه -وهما متعاصران- عندما أكَّدَ أنَّ الخليلَ كان "صحيحَ النسب"[٣٥]، كذلك قال معاصره الثاني أبو الفرج الأصفهانيّ في ذكره أخبار أبي الأسود الدؤليّ، وسلسلة النحاة الأوائل، فقال "ثم جاء الخليل بن أحمد الأزديّ، وكان صليبةً"[٣٦].

لكنَّ ياقوتاً الحمويّ تابع حمزة الأصبهانيّ من وجهٍ آخر في الطعن بعروبة الخليل بن أحمد، فقال: "وقيلَ: إنَّه مولى الفراهيد، وأصلُه من الفُرس. قال المؤلِّف: وهذا القول عندي صحيح؛ وذاك لأنَّه لم يذكر أحد في نسبه أكثر من الخليل بن أحمد، لم يزد أحدٌ عليه، ولو كان عربيّاً لم يخفَ ذلك عن الأئمة العلماء الذين كتبوا أنساب الأراذل الخامِلي الذِّكْر، فكيفَ مثل هذا الإمام مع كثرة تلاميذه المتقنين، أما كان منهم رجلٌ سأله عن نسبه، فيكتبه فيما كتبَ من أخباره وأشعاره؟!"[٣٧].

وهذا الترجيح غير مقنع كما كتب إحسان عبّاس -رحمه الله- في التعليق عليه بحاشية الكتاب[٣٨]؛ إذ ذكر الزّبيديّ المتوفَّى قبل ياقوت بثلاثة قرون تقريباً نسبَ الخليل، فقال: "هو أبو عبد الرحمن بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ"[٣٩].

---

(٣٣) ينظر: المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٢٠.

(٣٤) إنباه الرواة، القفطيّ، ج١، ص٣٧٠.

(٣٥) نور القبس، المرزبانيّ، ص ٥٤.

(٣٦) الأغاني، أبو الفرج الأصبهانيّ، ج١٢، ص ٣٤٨.

(٣٧) معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٣، ص١٢٦٠.

(٣٨) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، حاشية التحقيق، ج٣، ص١٢٦٠.

(٣٩) طبقات النحويّين واللغويّين، الزبيديّ، ص٤٧.

ولعلَّ تسليم بعضِ الدارسين المحدثين بافتعال نسبة الخليل إلى الفُرس هو الذي جعلهم يتجاوزون هذا الموضوع، كما فعلَ مهدي المخزومي، فقال: "وسكوته عن نفسه مظهرٌ من مظاهر زهده، ولونٌ من التواضع الذي يلازم العلماء"(٤٠)، وجعفر عبابنة الذي تجاوز القضية مؤكّداً أنَّه "كان عربيّاً خالصاً"(٤١)، وحذا حذوه كلٌّ من محمد خير الحلواني(٤٢)، وصلاح روّاي(٤٣)؛ فيكون الراجح أنَّ الخليلَ بن أحمد عربيُّ النسبِ صليبةً، لا يمتُّ بصلةِ دمٍ إلى أيِّ قومٍ سوى العربِ.

مذهبه الدينيّ

بصفةٍ عامة لا نميل إلى بحث مسألة المذهب الدينيّ لأيِّ نحويٍّ إلا في حالتين: أولاهما أن ينعكسَ المذهب الدينيّ على الأعمال العلميّة للنحويّ، وأما ثانيتُهما فأن يشجُرُ خلافٌ غير علميّ في بعض أبعاده حول المذهب الدينيّ للنحويّ؛ ذلك أنَّ اللغة تجمعُ الناطقين بها على لسانٍ واحدٍ في حين تفرِّقُ بعض المذاهب المعتقدين من الملّة الواحدة على مذاهب شتّى، وفي الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيديّ ومتابعة أعماله العلميّة فيما نسبَه إليه تلميذه سيبويه من آراء في الكتاب، أو ظهر في معجم العين تبيَّنَ أنَّ المذهب الدينيّ المنسوب للخليل لم يؤثّر في أعماله العلميّة وآرائه تأثيراً واضحاً يمكنُ إبرازه والبناء عليه.

أما الخلاف في الحالة الثانية فهو مظهر من مظاهر التحيُّز، يخفي لَبوسَ العصبيّة والطائفيّة والإقليميّة والشعوبيّة، ولهذا يجب أن يخضعَ للنقاش العلميّ، لكي لا يبقى الخليلُ بن أحمد دُولةً بين أصحاب الأهواء والمذاهب، وهذا يتطلّب دراسة موضوعين، هما: انتقاله من عُمان إلى البصرة، والشخصيّة المحوريّة المؤثّرة في حياته وسلوكه.

انتقاله إلى البصرة:

انتقالُ الخليلِ من عُمان إلى البصرة وهو صغير يشيرُ إلى أنَّه مولودٌ في عُمان، وإن كان فَهِمَ بعضُ الدارسين أنَّ كلمة (بصريّ) الواردة في نسبه تدلُّ على أنَّه من مواليد البصرة،

(٤٠) الخليل بن أحمد، مهدي المخزومي، ص ٤٤.

(٤١) مكانة الخليل بن أحمد، جعفر عبابنة، ص ٢٣.

(٤٢) ينظر: المفصّل في تاريخ النحو، محمد خير الحلواني، ص ٢٤٢.

(٤٣) ينظر: النحو العربي، صلاح روّاي، ص ١٦٣.

فهو فهمٌ غير دقيق[٤٤]؛ لأنَّ هذه النسبة لم ترد في سياق الحديث عن مكان الولادة، وإنمَّا تدلُّ على النسبة إلى المذهب النحويّ، وقد تكون دالةً على البلد الذي عاش فيه، وهو البصرة؛ إذ ولدَ الخليل سنة مائة للهجرة تقريباً في بلدة وِدام الساحل بولاية المصنعة من سلطنة عُمان، ثمّ رحل إلى البصرة وعُمرُه سنتان، فنشأ فيها[٤٥].

ووكان ارتحاله إلى البصرة مع أسرته لسبب مجهول؛ لأنَّه لاحقاً ورث عن أبيه بستاناً في الخُرَيبة من البصرة، كان يرتزق منه[٤٦]، كما أنَّ والدة الخليل توفّيت لاحقاً على الإباضيّة في البصرة[٤٧].

وللخليل وهو صبيٌّ يلعبُ في البصرة مع أترابه قصةٌ معروفة مع الفرزدق الذي توفيّ سنة مائة وعشر من الهجرة[٤٨]؛ ذلك أنَّ الفرزدق لم يرتضِ نظرَ الصِّبية إلى وجهه القبيح عندما مرَّ بهم، فقال:

نظروا إليكَ بأعينٍ محمرّةنظَرَ التيوسِ إلى مُدى القصّابِ

فقال له الخليل: نظرْنا إليكَ أنَّك مليح، كما يُنظرُ إلى القرد وهو مليح[٤٩].

وقد استنتجَ محمد صالح ناصر من هذه القصة أنَّ سِنَّ الخليل لم تجاوز السادسة على الأرجح[٥٠].

وارتحال الخليل وهو صبيّ من عُمان إلى البصرة يدلُّ على أمرين:

الأول: أنَّه لا تأثير لبيئة عُمان في نشأته العلميّة.

الثاني: أنَّه لم يكن في سنٍّ تؤهِّله لاعتناق أيِّ مذهبٍ بالاقتناع والبرهان، وهذا يُسقِط

(٤٤) ينظر: الخليل بن أحمد، محمد صالح ناصر، ص ٨-٩.

(٤٥) ينظر: النحو العربي، صلاح روّاي، ص ١٦٣-١٦٤.

(٤٦) ينظر: مراتب النحويّين، أبو الطيّب اللغويّ، ص٥٦. ونور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦.

(٤٧) ينظر: تهذيب الكمال، المزّي، ج٨، ص٣٢٧.

(٤٨) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٦، ص٢٧٨٨.

(٤٩) ينظر: نور القبس، المرزبانيّ، ص٦٩.

(٥٠) الخليل بن أحمد، محمد صالح ناصر، ص١٠.

الرواية اليتيمة التي أوردها المرزبانيّ على لسان الخليل، فقال: "قدمتُ من عُمان ورأيي رأيُ الصُّفريّة"(٥١)؛ لأنَّها الوحيدة التي تنسب الخليل إلى صفريّة الخوارج.

أيوب السَّخْتيانيّ مفتاح فهم شخصيّة الخليل:

تكادُ المصادرُ التي ترجمت للخليل تُجمعُ على أنَّه جلسَ إلى أيّوب بن أبي تميمة السَّختيانيّ(٥٢) المتوفَّى سنة ١٣١هـ/٧٤٨م بالبصرة زمنَ الطاعون(٥٣).

توصَّلَ مهدي المخزومي، وجعفر عبابنة إلى أنَّ أيّوب السختيانيّ أكثر شيوخ الخليل تأثيراً في سلوكه ومذهبه، فقال مهدي المخزومي: "فنحن إذا رجعنا إلى الخطوط الأساسيّة التي رسمت حياته الخُلُقيّة وجدناها أثراً من آثار أيّوب، فقد تأثَّر بها، وتمثّلها في نفسه تمثُّلاً حملها على النسك والزهد والتواضع والعفة والانصراف عن الحياة الماديّة"(٥٤). وقال جعفر عبابنة: "ويظهر أنَّه كان لأيّوب السختيانيّ أثر كبير فيه"(٥٥).

فأيّوب السختياني هو المفتاح الرئيس لفهم شخصيّة الخليل بن أحمد في سلوكه ومذهبه؛ ذلك أنَّ الإنسانَ بطبعه يبحث عن أنموذج للاقتداء به، يرتضيه قدوة في السلوك أو العلم أو فيهما معاً. وشخصيّة أيوب السختيانيّ شخصيّة جاذبةٌ لافتة تصلحُ أنموذجاً للقدوة الصالحة؛ إذ كان محدِّثاً زاهداً متواضعاً متصرّفاً في علوم عصره، لا يحبُّ التقرّب من أولي الأمر، حجَّ أربعين حجّة، وكان يقوم الليلَ كلَّه(٥٦).

وهذه الصفات هي عينُها صفات الخليل بن أحمد؛ فقد كان معدوداً في المحدِّثين والزُّهاد

(٥١) نور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦.

(٥٢) ينظر: طبقات النحويّين واللغويّين، الزّبيديّ، ص٤٨. ونور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦. وسير أعلام النبلاء، الذهبيّ، ج٧، ص٤٣٠. والوافي بالوفيات، الصفديّ، ج١٣، ص٢٤١.

(٥٣) سير أعلام النبلاء، الذهبيّ، ج٦، ص٢٤.

(٥٤) الخليل بن أحمد، مهدي المخزومي، ص٥٣.

(٥٥) مكانة الخليل بن أحمد، جعفر عبابنة، ص ٢٦.

(٥٦) ينظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء، الذهبيّ، ج٦، ص١٥-٢٦.

ومعروفاً بالتصرّف في علوم عصره، وعدم التقرّب من أولي الأمر، وكان يحجّ عاما ويغزو عاما حتى حجّ أربعين حجّة[٥٧].

ومعروف عن أيّوب السختيانيّ أنَّه كان شديدَ الاتباع للسُّنة، وكان يكره أصحابَ الأهواء، ويسمِّيهم خوارج، ولا يكاد يكلِّمهم، قال يوماً: "إنَّ الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف"[٥٨]، "وقال له رجلٌ من أصحاب الأهواء: يا أبا بكر، أسألك عن كلمة؟ فولىَّ يقول: ولا نصف كلمة. مرتين"[٥٩].

وهذا يعني أنَّ أيّوب السختيانيّ لن يسخوَ بعلمه ووقته ورعايته لصُفريّ أو إباضيّ أو شيعيّ، وهذا الاستنتاج يدعمه الخبر المتداول عن تحوّل الخليل إلى مذهب أهل السُّنّة، فقد رُوِيَ عن الأصمعيّ تلميذ الخليل أنَّه قال: "كادت الإباضيّة تغلب على الخليل حتى مَنَّ اللهُ عليه بمجالسة أيّوب"[٦٠].

ونسَبَ المرزبانيّ إلى الخليل أنَّه قال: "قدمتُ من عُمان، ورأيي رأيُ الصُّفريّة، فجلستُ إلى أيّوب بن أبي تميمة السختيانيّ، فسمعته يقول: إذا أردت أن تعلمَ علمَ أستاذك، فجالسْ غيرَه.. فظننتُ أنَّه يعنيني، فلزمتُه، فنفعني الله به"[٦١].

وكلتا الروايتين تدلُّ على أنَّ الخليل تحوَّلَ من مذهب خوارج الصُّفريّة أو الإباضيّة إلى مذهب أهل السُّنة على يد شيخه أيّوب السختياني مع تبينُّ أنَّ نسبة الخليل إلى الصُّفريّة فيها نظر؛ لأنَّ هذه الرواية غير دقيقة، فلم يأتِ الخليل إلى البصرة متمذهباً بمذهب بل جيءَ به وهو صغير لمّا يبلغ الحلم؛ لهذا لم يتبنَّ أحد من الدارسين أنَّ الخليل كان صُفريّاً.

أمَّا تمذهب الخليل بمذهب الإباضيّة فقد تبنَّاه قطب الأئمة أطفيش، ودعمه بثلاثة أدلّة، هي:

---

(٥٧) ينظر ترجمته في: نور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦-٧٢ . تحفة الأديب، السيوطيّ، ج١، ص٢٦٤-٢٧٧.

(٥٨) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٦، ص٢١.

(٥٩) المصدر نفسه، ج٦، ص٢١.

(٦٠) طبقات النحويّين واللغويّين، الزبيديّ، ص٤٨. وينظر: العقد الفريد، ابن عبد ربّه، ج٢، ص٨٥. وينظر الخبر مرويّا عن حمّاد بن زيد تلميذ الخليل في تهذيب الكمال، المزّيّ، ج٨، ص٣٢٧.

(٦١) نور القبس، المرزبانيّ، ص٥٦.

أولاً: تحقّق ولاية الشهرة في ديانة الخليل بن أحمد بثبوت موافقته للدين، وملازمته للتقوى.

ثانياً: عدم براءته من أئمة الإباضيّة؛ إذ يجوز أن يكون إباضيّاً مَن لم يرفع البراءة من المذهب لسببٍ ما[٦٢].

ثالثا: تولّي الشيخ عمر التلاتي الإباضيّ الخليل بن أحمد.

وهذه الأدلة غير علميّة وغير مقنعة؛ لأنَّ الدليل الأول هو دليل على إيمان المسلم، أيّاً كان مذهبه. والدليل الثاني يحتاج إلى المجاهرة بالإباضيّة، ثم البراءة منها، أو السكوت عنها. والخليل لم يعلن إباضيّته أو يجاهر بها حتى يُعرفَ بذلك، فيتوجّب عليه البراءة أو السكوت، عدا أنَّ هذا الدليل يجعل الإباضيّة بالوراثة، وهذا الأمر لا ترتضيه عقول العلماء الذين يدقّقون النظر فيما يعتنقون، فلا يشترط أن يقتفوا مذاهب آبائهم، ولا سيّما في مجتمع البصرة المنفتح على أجواء الحريّة والحوار في القرن الثاني الهجريّ. وأما الدليل الثالث فهو غير ملزم حتى إنَّ قطب الأئمة جعله دليلاً فرعيّاً، فقال عنه: "وهذه -يقصد الحجة- تقوية"[٦٣].

فقد ظهر أنَّ الخليل سُنّي، ولم يتحوَّل عن هذا المذهب، فبقي عليه طيلة عمره، كما قال جعفر عبابنة[٦٤]؛ إذ قال فيه تلميذه النضر بن شُميل: "ما رأيتُ رجلاً أعلمَ بالسُّنة بعد ابن عونٍ من الخليل بن أحمد"[٦٥]. وقيل: "كان أهل البصرة كلّهم أصحاب أهواء إلا أربعة؛ فإنَّهم كانوا أصحاب سُنَّة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعيّ"[٦٦].

---

(٦٢) ينظر: مشارق أنوار العقول، السالميّ، تصحيح وتعليق: أحمد بن أحمد الخليليّ، ص٤٣٧-٤٥٨.

(٦٣) ولاية الخليل بن أحمد، أطفيش، ص٤٠.

(٦٤) ينظر كتابه، مكانة الخليل بن أحمد، ص٢٦، وقد أكّدت الدكتورة رحاب عكاوي هذا الرأي. ينظر كتابها: الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، ص١٩.

(٦٥) ينظر: نزهة الألبّاء، ابن الأنباريّ، ص٤٧.

(٦٦) ينظر المصدر نفسه، ص١٠٠.

وبعد أن أقرَّ مهدي المخزومي بتحوّل الخليل إلى مذهب أهل السُّنة على يد شيخه أيّوب السختيانيّ، ذهب إلى أنَّه قد "عدلَ عن هذه السُّنّيّة إلى التشيّع"[٦٧]. وهو قولٌ غير دقيق تردّدُه بعض الكتب الشيعيّة؛ ذلك أنَّه لم يُذكر في أيِّ مصدرٍ قديم معتبر على حدّ علمنا أنَّه تشيَّع، وكلّ ما ذُكر هو من أقوال الكتب الشيعيّة المتأخرة، بل الحديثة، مثل: أعيان الشيعة، ورياض العلماء، وقاموس الرجال، وتأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.

والتحيُّز في سلك الخليل في مذهب الإباضيّة أو الشيعة يظهر في الجدول الآتي:

المذهب المنسوب إليه	مصدره أو مرجعه	اسم المؤلّف	مذهبه
الإباضيّ	ولاية الخليل	أطفيّش	إباضيّ
شيعيّ	أعيان الشيعة	السيد محمد الأمين	شيعيّ
شيعيّ	رياض العلماء	الميرزا عبدالله الأصبهانيّ	شيعيّ
شيعيّ	قاموس الرجال	التستريّ	شيعيّ
شيعيّ	تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام	السيد حسن الصدر	شيعيّ

فمؤلِّفو هذه الكتب لم يكونوا -كما يبدو- موضوعيّين، فتحيَّزوا لمذهبهم، وسلكوا فيه الخليل بن أحمد؛ ليحقَّ لهم الفخر به، وبعلمه، وبسلوكه، وفضله على الحضارة العربيّة الإسلاميّة انطلاقاً من مذهبهم، مع أنَّه لم يثبت وجود علاقة مطّردة دائمة بين مذهب العالم وتميّزه العلميّ، لهذا جانَبَ محمد تقي التستريّ الموضوعيّة عندما صدَّر ترجمته للخليل[٦٨] بما نُسب للخليل من أقوال في الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثمَّ ذيَّلَ الترجمة بذكر بعض أخبار الخليل مع أنَّ الثناء على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمرٌ يُجمِعُ عليه المسلمون كافة.

الخليل بين الأمويّين والعبّاسيين

صحيح أنَّ عامة المترجمين للخليل بن أحمد سلكوه بينَ أبرز الزهّاد في زمانه، وصحيح أنَّه أدرك أفولَ دولةِ بني أُمية سنة ١٣٢هـ، وبزوغ دولة بني العبّاس على إثرها في تحوّلٍ

(٦٧) الخليل بن أحمد، مهدي المخزومي، ص٤٨.

(٦٨) ينظر ترجمته في كتابه: قاموس الرجال، ج٤، ص٢٠١-٢٠٤.

مَشُوبٍ بأبعادٍ سياسيّة ومذهبيّة في أوله، وصحيح أنَّه ارتحلَ إلى جنوب البصرة في الأهواز وفارس والسند، لكنَّه لم يرتحل إلى شمال البصرة في بغداد، فكانت له مواسم هجرة إلى الجنوب لا الشمال، وصحيحٌ أنَّ المهالبةَ الأزديّين في دولة بني أمية كالبرامكة الفرس في دولة بني العبّاس.

في ضوء هذه المعلومات، كيف يمكن تفسير زهد الخليل مع ارتحاله إلى سليمان بن حبيب بن المهلّب بن أبي صفرة عندما كان والياً على السند، وزيارته الثانية له أو الثالثة عندما أصبح والياً على الأهواز؟

لا نعرف على وجه اليقين متى سافر الخليل من البصرة إلى السند مروراً بفارس والأهواز، لكنَّ الذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الزيارات كانت ما بين سنتي ١٢٠–١٣٠ للهجرة؛ ذلك أنَّ سليمان بن حبيب كان والياً للأمويين يقصده الشعراء في العقد الثالث من القرن الثاني الهجريّ، ولا سيّما بعد تفشّي موجات الطاعون في البصرة وسوء الأحوال الاقتصاديّة فيها، فذهب إليه الخليل بشعره وبنسبه؛ لأنَّه أزديّ مثله، حتى أصبح صديقاً له يصله سليمان بجراية معلومة(٦٩).

وذكر ابن الجوزيّ أنَّه صار وكيلاً لأبرز رجاله وهو يزيد بن حاتم المهلبيّ، وكان يجري عليه في كلِّ شهر مائتي درهم(٧٠).

وتدلُّ الأخبار على أنَّ الخليل قد عظم أمرُه عند سليمان بن حبيب المهلبيّ؛ فقد قيلَ: "كان الخليل صديق سليمان بن حبيب، وكثر الزوّارُ، فتشاغلَ عن الشعراء، فسألوا الخليل يذكِّرُه بأمرهم، فكتبَ إليه:

لا تقبلَنَّ الشعرَ ثمَّ تعقُّهُ ... وتنامُ والشعراءُ غيرُ نيامِ

واعلمْ بأنَّهم إذا لم يُنصَفوا ... حكموا لأنفسِهم على الحكّامِ

وجنايةُ الجاني عليهم تنقضي ... وعتابهم يبقى على الأيّامِ(٧١)

(٦٩) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٣، ص١٢٦٧. وينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، حوادث ووفيات ١٦١–١٧٠، ص١٧٢.

(٧٠) ينظر: المنتظم، ابن الجوزيّ، ج٧، ص٢٨٠.

(٧١) ينظر: نور القبس، المرزبانيّ، ص٦٧.

وهذا يعني أنَّ الخليل كان أمويّاً إلى حدٍّ ما مقرّباً من أحد ولاةِ بني أمية، وكان يبحث عن الرزق؛ لأنَّنا لا نعرف متى ورث بستان والده في خريبة البصرة وصار يعتاش منه؟

وعندما آلَ الأمرُ إلى بني العبّاس عفا أبو العبّاس السفّاح عن سليمان بن حبيب والي الأهواز[٧٢]، وعزله عن الحياة السياسيّة، لكنَّ المنصور ضربَ عنقه عندما وَلِيَ الخلافةَ[٧٣].

وفي ترجمات الخليل ذِكرُ لاثنين آخرين من المهالبة: أحدهما: يزيد بن المهلب بن أبي صُفرة أمير خُراسان، ثمّ البصرة، وقد قُتلَ بعد أن ثار فيها سنة١٠٢هـ[٧٤]؛ لهذا نستبعد تماماً قول المرزبانيّ: "وقال يزيد بن المهلّب للخليل: يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في السماح؟ فقال: هو إلى الكرم ارتياح، وفي النِّعم امتناح، ليس فيه كبير جناح، يغفر الله عمّا فوقه، ويأخذ بما هو دونه، وما أحبُّ أن أَغُرَّ بقولي وَرِعاً، ولا أهُزَّ طَبِعاً"[٧٥]، فكيف تجري هذه القصة مع الخليل ، وهو لما يجاوز السنتين من عمره؟!.

أما الثاني فهو عبّاد بن عبّاد المهلبيّ الأزديّ البصريّ الذي "كان سريّاً نبيلاً حُجّةً من عقلاء الأشراف وعلمائهم"[٧٦]، وهو الذي جمعَ بين الخليل وابن المقفّع المتوفّى سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م ثلاثةَ أيّام، شهد بعدها ابن المقفّع للخليل بأنَّ عقلَه أكثر من علمه[٧٧].

ويبدو أنَّ انتقال الخلافة إلى بني العبّاس أحدثَ تحوُّلاً في شخصيّة الخليل نحو أمرين:

الأول: الإقلال من شعر المديح؛ إذ لم يمدح أحداً بعد ذلك، وقد تبيَّنَّ من تحليل الشعر الذي جمعه حاتم الضامن للخليل بن أحمد أنَّ عدد الأبيات التي نُسِبت إليه في المديح سبعة أبيات من أصلِ مائة وثمانية وستين بيتا، وهي تشكل ٤,١٦٪ من شعره، أمّا الحكم

(٧٢) ينظر: المنتظم، ابن الجوزي، ج٧، ص٣٠٣.

(٧٣) ينظر: المصدر نفسه، ج٨، ص١٥.

(٧٤) ينظر: تاريخ الطبريّ "تاريخ الرسُل والملوك"، ج٦، ص٥٩٠-٦٠٤.

(٧٥) ينظر: نور القبس، المرزبانيّ، ص٦٢.

(٧٦) سير أعلام النبلاء، الذهبيّ، ج٨، ص٢٩٥.

(٧٧) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٣، ١٢٦٨.

والنصائح فهي الموضوع الغالب على شعره، وقد بلغ عدد أبيات الحِكم والنصائح ثمانين بيتا، تشكلّ ٤٧,٦٢٪ من شعره، فتحوّل من شاعر إلى نحويّ ولغويّ، ولا سيّما أنَّه اتصل في تلك الأثناء بشيخه عيسى بن عمر أحد أبرز أئمة النحو في زمانه، ودرسَ على يديه كتابيه في النحو: الجامع، والإكمال.

الثاني: الانصراف إلى العلم والزهد، وقد نمَّى هذا الأمرَ فيه تأثُّره بشيخه أيّوب السختيانيّ، وعدم رضاه عمّا آلَ إليه أمرُ أشراف المهالبة في ظلِّ دولة بني العبّاس، وليس ببعيد أن يكون عدم الرضا هذا موقفاً سياسيّاً؛ ذلك أنَّ الخليل لم يتقرّب من العبّاسيّين وولاتهم باستثناء خبرين:

الأول: ما يُذكَر من ترفّعه بالزهد على سليمان بن علي بن العبّاس أمير البصرة للعباسيّين الذي عُزِلَ سنة ١٣٩هـ[٧٨].

والثاني: ما انفردَ المرزبانيّ بذكره من أمر بعثة المهديّ إلى الخليل لمجرّد الحديث حتى انتهت القصة بأن قال الخليل: "فخرجتُ من عنده بغير شيء"[٧٩]، وهذه القصة غير ثابتة؛ إذ لم يَزر الخليل بغداد، لكنَّها فيما يبدو للغمز بأحد خلفاء بني العبّاس، وقد لا يكون الخليل أدرك المهديّ وهو خليفة، لأنَّ المهدي تولىَّ الخلافة سنة ١٦٩هـ، وهو عهد قريب من وفاة الخليل التي كانت سنة ١٧٠هـ أو ١٧٥هـ.

يتبيّن مما سبق أنَّ صلات الخليل بالشخصيّات السياسيّة كانت قبل سنة ١٤٢هـ بعد إسقاط قصته مع المهديّ، وأنَّ الزهدَ قد غلب عليه بعد استقراره بالبصرة عقب ثورة العبّاسيّين، وأنَّه أمويّ الولاء السياسيّ، حتى إنَّه وتلميذه سيبويه لم يذكرا بغداد في الكتاب، بل ذكرا: دمشق والشام والبصرة[٨٠].

---

(٧٨) ينظر: تاريخ الطبريّ، ج٧، ص٥٠٠.

(٧٩) نور القبس، المرزبانيّ، ص٦٦. ينظر في تفاصيل القصة ص٦٥-٦٦.

(٨٠) ينظر: فهرس البلدان والمواضع الملحق بتحقيق عبد السلام هارون كتابَ سيبويه، كما ينظر: في التحليل الاجتماعيّ للظاهرة النحويّة: المثال النحويّ في كتاب سيبويه بين الدلالة الاجتماعيّة والقاعدة النحويّة، حسن خميس الملخ: مجلة كليّة الدراسات الإسلاميّة والعربيّة، الإمارات العربيّة المتحدة، العدد العشرون، ٢٠٠١م، ص٣٥٨-٣٥٩.

ولا يعني هذا أنَّ الأمويّةَ قد تمكّنت من عقلِ الخليل ونفسه؛ لأنَّ التحليلَ النفسيَّ لشخصيته حتى ذلك العهد يقفُ بنا على حقيقةٍ مهمة، مؤدّاها أنَّه كانَ شاباً في مقتبلِ العمرِ لما تنضجْ تجربتَه في الحياة، يسعى إلى تحقيق ذاته والتوازن مع شيءٍ مهمٍّ في داخله، فجرَّبَ التمذهبَ بالإباضيّة، ثمّ عَدَلَ عنه إلى مذهب السُّنّة، وجرَّبَ طرحَ نفسه شاعراً، ثم عدَل عن قول شعر المديح، وجرَّب التقرّبَ من بعضِ السياسيين الأمويين، ثم عدَلَ عن هذا المسلك؛ ليجد نفسه سُنيّاً زاهداً عالماً بالنحو واللغة والأصوات والعروض، بعيداً عن السياسة والسياسيّين.

أساطير حولَ الخليل

من مظاهر التحيّز للخليل بن أحمد أنَّ بعضَ المترجمين له ذكروا عنه أخباراً وحكايات تعدُّ من قبيل الأساطير والحكايات الخرافيّة غير الممكنة -في السياق الذي ذُكرتْ فيه- أن تقع فعلاً، أو تصدر عن الخليل مع ما هو عليه من ذكاء غير مدفوع، ومن هذه الأساطير:

١ - أسطورة تركيب الدواء:

نقل اليافعيّ عن كتاب المقتبس للمرزبانيّ أنَّه "كان للناسِ رجلٌ يعطي دواءً لظُلمة العين، ينتفعُ الناس به، فمات، فاحتيجَ إلى ذلك الدواء، ولم يُعْرَفْ ما هو، فذُكِرَ ذلك للخليل، فقال: أله نسخةٌ معروفةٌ؟ قالوا: لم نجد نسخته. قال: فهل كانت له آنية يعمل فيها؟ قالوا: نعم، إناء كان يجمع فيه الأخلاط. قال: فأتوني به. فجاؤوا به، فجعل يتشمّمه، ويُخرِج نوعاً نوعاً حتى ذكر خمسة عشرَ نوعاً، ثم عمله، وأعطاه الناس، فشفوا به، ثم وجدت النسخةُ والأخلاط المذكورة فيها ستة عشر، لم يُغْفِل إلا واحداً"[٨١].

وقد ذكرت هذه القصة باختلاف يسير في اللفظ في معجم الأدباء[٨٢]، والوافي

(٨١) ينظر: مرآة الجنان، اليافعيّ، ج١، ص٢٨٢.

(٨٢) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٣، ص١٢٦٣.

بالوفيات[٨٣]، وبغية الوعاة[٨٤]، وتحفة الأديب[٨٥]، وولاية الخليل بن أحمد[٨٦].

هذه القصة فيما يبدو أسطورة لعلَّ المرزبانيّ أول من ذكرها، لكنَّ اليغموريّ الذي اختصر كتابه في القرن السابع الهجريّ، وسمّاه نور القبس قد حذفها من مختصره، كأنَّه لم يقتنع بها، ثم ذكرها ياقوت والصفديّ والسيوطيّ بصيغة التمريض المعروفة في علم مصطلح الحديث عن طريق البناء للمجهول، فقالوا: قيل، ويُقال[٨٧]، وهذه الصيغة تدلُّ على الإلماح إلى الشكّ في القصة، فليس صحيحاً أنَّ هؤلاء النَّقَلة قد تكلّموا بجديّة واقتناع، كما فهم محمد المختار[٨٨].

في حين انفرد السيوطيّ في تحفة الأديب بذكر سند القصة، فقال: "وروى الصولي عن محمد بن يحيى الأدميّ عن عبدالله بن الفضل عن أبيه، قال: ..." وسرد القصة[٨٩]. وهذا هو السند الذي يمكن أن يرويه المرزبانيّ عن الصوليّ.

وجعل قطب الأئمة أطفيّش محمد بن الفضل أصلَ السند، واكتفى به.

ويبدو أنَّ هذه القصة الأسطوريّة مبنيّةٌ بناءً أسطوريّاً خياليّاً من وحي قصة اكتشاف الخليل بن أحمد دوائر العروض وبحور الشعر؛ إذ اشتُهر في الكتب أنَّ الخليل قد اكتشف دوائر العروض، واستخلص منها بحور الشعر العربيّ، فوجدها خمسة عشر بحراً، ثم استدرك عليه تلميذه الأخفش الأوسط البحر السادس عشر، وسمّاه المتدارك، أي المستدرك على بحور الخليل[٩٠].

---

(٨٣) ينظر: الوافي بالوفيات، الصفديّ، ج١٣، ص٢٤٢.

(٨٤) ينظر: بغية الوعاة، السيوطيّ، ج١، ٥٥٩.

(٨٥) ينظر: تحفة الأديب، السيوطيّ، ج١، ص٢٧٢.

(٨٦) ينظر: ولاية الخليل بن أحمد، أطفيّش، ص٤٥.

(٨٧) ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٣، ص١٢٦٣. والوافي بالوفيات، الصفديّ، ج١٣، ص٢٤٢. وبغية الوعاة، السيوطيّ، ج١، ٥٥٩.

(٨٨) ينظر: تاريخ النحو العربيّ في المشرق والمغرب، محمد المختار ولد ابّاه، ص٧٣.

(٨٩) تحفة الأديب، السيوطيّ، ج١، ص٢٧٢.

(٩٠) ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٢، ص٢٤٤.

قال عبد الرؤوف بابكر السيد: "وهذا الخبر -فيما أرى- تبدو فيه الصنعة، أراد به واضعه أن يعقد مقارنة بين عدد البحور العروضيّة الستة عشر التي اكتشف منها الخليل خمسة عشر، ولم يفته إلا المتدارك"[٩١] وبين أخلاط الدواء الستة عشر التي استخلصها الخليل ولم يفته منها إلا خلطٌ واحد.

على أنَّ في القصة بُعداً أخطر من ذلك، وهو أنَّ العروض مثل الدواء كان معروفا، ثم انقطعتْ معرفتُه حتى جدَّد الخليل تلك المعرفة، فجاءت شبه مكتملة، وهو رأي ابن فارس؛ إذ قال: "فإن قال قائل: فقد تواترت الروايات بأنَّ أبا الأسود أول من وضع العربيّة، وأنَّ الخليل أول من تكلّم في العروض. قيلَ له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول: إنَّ هذين العلمين قد كانا قديماً، وأتت عليهما الأيام، وقلاّ في أيدي الناس، ثم جدّدهما هذان الإمامان"[٩٢]. وهذا لا يصحّ لأنَّ نظرية النحو ذات بعد إسلاميّ، والشعر العربيّ الموزون ليس متطاولاً في القِدم.

على أنَّ في النفس من استدراك الأخفش على الخليل بحر المتدارك المعروف بالخبب شكّاً؛ لأنَّ الدائرة العروضيّة رياضيّة تحصر كلّ البحور المستعملة والممكنة[٩٣]، فلعلَّ الخليل لم يجد شواهدَ على بحر الخبب مع أنَّ الكتب تنسب إليه بيتين من بحر الخبب المتدارك عليه، هما قوله:

سُئلوا فأبَوا فلقدْ بَخلوا ... فلبئسَ لعمركَ ما فَعَلوا

أبَكيتَ على طَلَلٍ طَرَبا ... شجاكَ وأحزَنَكَ الطلَل[٩٤]

---

(٩١) المدارس العروضيّة، عبد الرؤوف بابكر السيد، ص٩٧-٩٨.

(٩٢) الصاحبيّ، ابن فارس، ص١٣.

(٩٣) اللسانيّات الرياضيّة والعروض، مصطفى حركات، ص٤٢-٤٣.

(٩٤) ينظر: مراتب النحويّين، أبو الطيّب اللغويّ، ص٥٩. ونور القبس، المرزبانيّ، ص ٦٠. وينظر في مناقشة روايات ابتكار الخليل عروض الشعر العربيّ

- حول النظائر الإيقاعيّة للشعر العربيّ، محمد أحمد وريّث، ص١٧-٢٠.

- المدارس العروضيّة، عبد الرؤوف السيد، ص٨١-٩٢.

٢ - أسطورة قراءة اللغات الميتة:

قال الزبيديّ: "ويُروى أنَّ ملك اليونانيّة كتب إلى الخليل كتاباً باليونانيّة، فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه، فقيلَ له في ذلك، فقال: قلتُ: إنَّه لا بدَّ له من أن يُفْتَحَ الكتاب باسم الله أو ما أشبهه، فبنيتُ أول حروفه على ذلك، فاقتاس لي، فكان هذا هو الأصل الذي عمل له الخليل كتابَ المعمَّى"(٩٥).

سياق هذه القصة عند الزبيديّ في ذكر سبب تأليف الخليل كتابَ (المعمَّى) المنسوب إليه، وعند الشريشيّ وقطب الأئمة السياقُ مقطوعٌ عن ذكر هذا الكتاب. وليس الأمر هنا في تحقيق نسبة هذا الكتاب إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ، بل الأمر حكاية قراءة اللغات الميتة ، فاللغة اليونانيّة في ذهن الخليل ميتة لا يعرفها، ولكي يتمكن من معرفتها لجأ إلى مبدأ عزل الصور الإملائيّة المعروف في قراءة اللغات الميتة البائدة في علم تاريخ اللغات العام، مثل علم الساميّات والمصريّات، فبدأ بتجريب المقابلة بين الصور المتشابهة والحرف الذي يتوقّعه حتى انقاست له الحروف، وظهر له وجه الكلام.

وهذه الأسطورة –وإن كانت تكشف عن مبدأ قراءة اللغات الميتة– إلا أنَّها غير حقيقيّة، فلا علاقة بين ملك اليونان والخليل حتى يرسل الأوّل للثاني كتاباً، ثمّ إنَّ اليونان لم تكن مملكة مستقلة، بل كانت أيّام الخليل جزءاً من الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولو أراد إمبراطور الروم أن يُظهر للعرب أنَّ العلمَ في بلادهم حديث، وفي بلاده قديم عريق لأرسلَ هذه الرسالة إلى خليفة المسلمين حسب ما تقتضي أعراف المراسلات بين الأمم والدول، ثم إنَّ الخليل قد أسقط حسب مدلول الحكاية الفكرَ الدينيّ الإسلاميّ على الرسالة، فالمسلمون يفتتحون رسائلهم غالبا باسم الله، لكنْ لكلِّ أمةٍ أخرى أعرافها وتقاليدها وأصولها في بدء الرسائل وصَوغ الكلام.

وبعيد عن الظنِّ أن تكون اللغة اليونانيّة مجهولة تمام الجهل عند المسلمين في أُفول القرن الثاني الهجريّ؛ ذلك أنَّ الحضارة اليونانيّة قد تُرجِمت إلى العربيّة، إمّا مباشرة أو عبر اللغة

(٩٥) طبقات النحويّين واللغويّين، الزبيديّ، ص٥١. وينظر: شرح مقامات الحريريّ، الشريشيّ، ج٤، ص٣٨٤. وولاية الخليل بن أحمد، أطفيّش، ص٤٦.

السريانيّة، مما يعني أنَّ العربَ إن جهلوا اللغة اليونانيّة ، فالسريان يعرفونها غالبا، ولهذا فالقصة أسطورة مفتعلة.

وعلم استخراج (المعمّى) هو علم الألغاز، وهذا العلم كان معروفاً به الخليل بن أحمد، فعن الأصمعيّ عن الخليل أنَّه قال: رأيتُ أعرابيّاً يسأل أعرابيّا عن (البَلَصوص) ما هو؟ فقال: طائر. قال: فكيفَ تجمعُه؟ قال: (البَلَنصى) قال الخليل: فلو ألغزَ رجلٌ، فقال:

فما البَلَصوصُ يتَّبعُ البَلَنصى

كان لغزاً"[٩٦]. أي: أنَّ الاسم المفرد يتّبع جمعه بالضرورة، فالبلصوص اسم مفرد يتّبع جمعه أينما صار لأنَّه منه في الاشتقاق، وإن غابت الواو عن الجمع، وظهرت النون والألف.

وهذا النوع من الألغاز لا علاقة له بقراءة اللغات التي لا يعرفها الخليل.

ويبدو أنَّ بعضَ كتبِ التراجم لم تكتفِ بجعل ملوك المسلمين وأمرائهم وولاتهم يقصدون الخليل، ويتعرّضون له لينال منهم[٩٧] حتى ضمّت إليهم بعض ملوك العجم. وقد جزم محمد خير الحلوانيّ[٩٨]، وإبراهيم السامرّائي[٩٩] بزيف هذه القصة، في حين لم ينفها ولم يثبتها جعفر عبابنة[١٠٠]، وصلاح روّاي[١٠١].

---

(٩٦) مراتب النحويّين، أبو الطيب الغويّ، ص١٠٤. وينظر: تحفة الأديب، السيوطيّ، ج١، ص٢٧٠.

(٩٧) ينظر: ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٦٣. والقفطيّ، إنباه الرواة، ج١، ص٣٧٩. وقد أكّدَ المستشرق كيس فيرستيج وجود مترجمين متخصصين باللغة اليونانيّة في بلاد الشام والعراق، وأنَّ اللغة اليونانيّة لم تكن لغة ميتة بل كانت معروفة عند النخبة ولا سيما عند السريان في العصرين: الأمويّ والعباسيّ .

ينظر كتابه: عناصر يونانيّة في الفكر اللغويّ العربيّ، ص ٤٢-٤٣.

(٩٨) ينظر: المفصل في تاريخ النحو، محمد خير الحلواني، ص٢٤٦.

(٩٩) ينظر رأيه في حاشية تقديمه لكتاب مكانة الخليل بن أحمد، ص٦.

(١٠٠) ينظر: مكانة الخليل بن أحمد، جعفر عبابنة، ص٢٥، والخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، رحاب عكاوي، ص٢١.

(١٠١) ينظر: النحو العربيّ، صلاح روّاي، ص١٧١.

٣ - أسطورة حرق نسخة معجم العين الأصليّة:

ليس من وكدِ البحث بسطُ الحديث عن الاختلاف في نسبة معجم العين للخليل بن أحمد، أو مناقشة دور بعض العلماء في إكماله والتحشية عليه حتى غدا مضطرباً إلى حدٍّ ما؛ فذلك أمر تشاغلت به بعض الدراسات الأخرى(١٠٢)، وإنْ كُنّا نميلُ إلى أنَّ الخليلَ صاحبُ فكرة معجم العين، وواضعُ خطّته ليسَ غير، إنّما وكدُ البحث الحديث عن أسطورة مفتعلة تتعلّق بحرق النسخة الأصليّة الأولى من هذا المعجم، فقد ذكر ياقوت الحمويّ عن عبدالله بن المعتزّ أنَّ الخليل بن أحمد كان منقطعاً إلى الليث بن رافع، وقد ارتحل، وصنَّف له كتاب العين، "وخصَّه به دون الناس، وحبرَّه، وأهداه إليه، فوقع منه موقعاً عظيماً، وسُرَّ به، وعوَّضَه عنه مائة ألف درهم، فاعتذر إليه، وأقبل الليث ينظر فيه ليلاً ونهاراً لا يملّ النظر فيه حتى حفظ نصفه، وكانت ابنة عمّه تحته، فاشترى الليث جارية نفيسة بمالٍ جليل، فبلغَها ذلك، فغارت غَيرةً شديدةً، فقالت: والله لأغيظَنَّه ولا أبقي غاية، فقالت: إن غظتُه بالمال فذاك ما لا يبالي به، ولكنّي أراه مُكبّاً ليلَه ونهارَه على هذا الدفتر، والله لأفجعَنَّه به، فأخذت الكتاب، وأضرمت ناراً، وألقته فيها. وأقبل الليث إلى منزله، ودخل البيت الذي كان فيه الكتاب، فصاح بخَدَمه، وسألهم عن الكتاب، فقالوا: أخذته الحُرّة. فبادر إليها، وقد علم من أين أُتيَ، فلما دخل عليها ضحك في وجهها، وقال لها: رُدّي الكتاب فقد وهبتُ لك الجارية وحرّمتها على نفسي. وكانت غضبى، فأخذت بيده وأدخلته البيت الذي أحرقته فيه، وفيه رمادُه، فسقط في يد الليث، فكتبَ نصفَه من حفظه، وجمع على الباقي أدباء زمانه، وقال لهم: مثّلوا عليه، واجتهدوا. فعملوا هذا النصف الذي بأيدي الناس. فهو ليس من تصنيف الخليل، ولا يُشقُّ غبارُه، وكان الخليل قد مات"(١٠٣).

وقد ذكر اليماني القصة بتغيير يسير، فقال في ترجمة الليث بن نصر: "وصنَّف الخليل كتابَ العين لبعض الأمراء، قال: فعُنيَ به ذلك الأمير عناية شديدة، وأكبَّ على مطالعته،

---

(١٠٢) ينظر: الدراسات اللغويّة عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص٢٢٧-٢٤٥. وكتاب العين في ضوء النقد اللغويّ، نعيم سلمان البدري، الكتاب كاملاً.

(١٠٣) معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ج٥، ص٢٢٥٤-٢٢٥٥. وينظر: القصة مختصرة في: بغية الوعاة، السيوطيّ، ج١، ص٥٦٠.

وكانت له جارية يحبّها وتحبّه، فاشتغل عنها لسبب غرامه بذلك الكتاب، فحصل من ذلك غيرةٌ، فعمدت إليه، فأحرقته بالنار. فجزع عليه، وتأسّف لهلاكه، ولم يكُ للكتاب نسخة أخرى، وكان الخليل قد مات، فجمع الأميرُ من قدر عليه من العلماء، وأملى النصف الأول من صدره، وأمرهم أن يتمّوه، فلم يأتِ ما ألّفوه على مشاكلته"(١٠٤).

تأتي هذه الأسطورة في سياق تفسير ما اعترى معجم العين من اضطراب، وهذا التفسير لونٌ من ألوان الحرص على إثبات أنَّ الخليل إذا عمل عملاً فإنَّه يجيء مُبرَّأً من كلِّ عيب، وهذا الحرص شكل من أشكال التحيّز؛ ذلك أنَّه من منطق الأعمال العلميّة عند البشر أن يقعَ العلماء على أخطاء هنا، وهناك في أيّ كتابٍ بشريّ، لكنَّ بعض المترجمين فيما يبدو يأبَون إلا أن يترجموا للخليل وفْقَ نظرية الكمال العلميّ في كلِّ علمٍ تعاطاه، فساقوا في هذا السياق هذه القصة المفتعلة.

وقد ذُكرتْ قصة مشابهة لهذه القصة إلى حدٍّ كبير في سياق تفسير ما يبدو من اضطراب في تبويب أبواب كتاب سيبويه تلميذ الخليل. ذكر صاعد البغداديّ الحكاية الآتية: "قال لنا أبو عليّ -يقصد أبا علي الفارسيّ- : تزوّج سيبويه بالبصرة بجارية عشقته، وهو قد بنى عقد كتابه، وصنَّف أوائل أبوابه، وهي في جُزازات وقطع جلودٍ وخِرَقٍ وأشْقافٍ بِيْضٍ، فلم يكن يُقبِل على الجارية، ولا يشتغل بها، وهي مشغوفةٌ بحبّه، ولم يكن يشغله غير النظر والسهر والكتب، فترصدت خروجَه إلى السوق في بعض حوائجه، وأخذت جذوةَ نارٍ، فطرحتها في الكتب حتى أحرقت، فرجع سيبويه، فنظر إلى كتبه وهي هباء، فغُشِيَ عليه أسفاً، ثم أفاق فطلَّقها، ثم ابتنى الكتاب بعد ذلك ثانية. قال لنا أبو علي: وذهب منه علمٌ كبيرٌ أخذه على الخليل فيما احترق له، وإنّا لله على ذلك"(١٠٥).

فالقصة في المضمون هي هي، أول معجمٍ مكتملٍ ناجحٍ تتسبّبُ امرأة في تشويهه، وأول

---

(١٠٤) إشارة التعيين، اليماني، ص٢٧٧-٢٧٨. وينظر: البلغة، الفيروز آباديّ، ص٧٩.

ولعلَّ في النصف الموسوم بعدم الاضطراب مشاكلة عدديّة مع الخبر المرويّ عن حفظ الخليل لنصف اللغة. ينظر: تهذيب الكمال، المزّيّ، ج٨، ص٣٣٣.

(١٠٥) المختار من كتاب الفصوص، صاعد البغداديّ، ج٣، ص١٢٠. وينظر: تحفة الأديب، السيوطيّ، ج٢، ص٥٢٥-٥٢٦.

كتاب نحو مكتمل ناجح تتسبّب امرأة في تشويهه، على أنَّ في قصّة أبي علي الفارسيّ عن كتاب سيبويه ما يشيرُ إلى علم كبير في النحو أخذه سيبويه عن شيخه الخليل، لكنَّه ذهب مع النسخة المحترقة من الكتاب، ولم يمهل سيبويه الأجل لإعادته كما كان؛ ذلك أنَّ سيبويه قد طُلِبَ إلى بغداد لمناظرة الكسائيّ، فيما عُرِف بالمناظرة الكبرى في النحو، وتوفيَّ بعدَها بقليل في فارس، فأخذ الأوراق تلميذه الأخفش الأوسط، ونظر فيها، فإذا هي تخلو من اسم الكتاب وخطبته عدا أنَّ ترتيب المسائل فيها غير بينٍّ للمبتدئين.

ولعلَّ في القصة أصداءً من تلك العقليّة التي تجعل المرأة سبباً في تشويه الأعمال العلميّة الخالدة، كما في قصص أرسطو حكيم اليونان مع زوجته، وغيره من العلماء، وهي قصص تفسيريّة في تسويغ ما قد يعدُّ عيباً في العمل العلميّ، لا نصيب لها من الصحّة غالباً، والله أعلم.

٤ - أسطورة موته بسبب التفكير في حلّ مشكلة الحساب:

ذكر القفطيّ المتوفّى سنة ٦٢٤هـ في سبب موت الخليل بن أحمد قصة تبدو من الأساطير؛ ذلك أنَّه قال على لسانه في سبب موته: "أريدُ أنْ أقرِّبَ نوعا من الحساب تمضي به الجاريةُ إلى البقّال، فلا يمكنه ظلمُها، ودخل المسجدَ، وهو مُعملٌ فكرَه في ذلك، فصدمته ساريةٌ، وهو غافلٌ عنها بفكره، فانقلبَ على ظهره، فكانتْ سببَ موته"[١٠٦].

وذَكَرَ القصةَ بعدَه باختلاف يسير ابنُ خلكان المتوفّى سنة ٦٨هـ[١٠٧]، وابنُ فضل الله العمريّ المتوفّى سنة ٧٤٩هـ[١٠٨]، والصفديُّ المتوفّى سنة ٧٦٤هـ[١٠٩]، والسيوطيُّ المتوفّى سنة ٩١١هـ[١١٠].

وهذه القصةُ فيما يبدو أسطورةٌ، لم تذكرها الكتبُ المتقدمة التي اعتمدتها الدراسةُ قبل

---

(١٠٦) ينظر كتابه: إنباه الرواة، ج١، ص٣٨١.

(١٠٧) ينظر كتابه: وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٤٨.

(١٠٨) ينظر كتابه: مسالك الأبصار، ج٧، ص٨٣- ٨٤.

(١٠٩) ينظر كتابه: الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٢٤١.

(١١٠) يُنْظَرُ كتاباه: بغية الوعاة، ج١، ص٥٦٠. وتحفة الأديب، ج١، ص٢٧٢.

القرن السابع الهجريّ، وأقدمُ من ذكرها – في حدود علمنا – القفطيُّ في القرن السابع الهجريّ من غير أن يجزمَ بصحتها؛ إذ قال بعدَ سَرْدِها: "وقيل: كان يقطِّعُ بحراً من العروض. والله أعلمُ أيّ الأمرين كان"(١١١)؛ فلعلّها في سياقِ إعطاء الخليلِ دوراً في حلِّ مشكلة الأرقام في العربيّة؛ لأنَّ المسلمين إلى عهده كانوا يكتبون الأرقام بطريقة "حساب الجُمَّل" الذي يقومُ على مقابلة حروف الأبجديّة العربيةِ بأرقام ثابتة، فلمّا كانت الكتابةُ العربيّة غيرَ مستقرةٍ تماماً من حيث الإعجام؛ كان من السهل التزويرُ والتزييفُ والتصحيفُ والتحريفُ بين الحروف المتقاربة في الرسم الإملائيّ مثل الزاي والراء، فالزاي تعادل الرقم سبعة، في حين تعادل الراء الرقم مائتين، والفرق بينهما في الكتابة نقطة، يسهل وضعها كما يسهل تفشّي خطّ كتابتها حدّ الإهمال.

وهذه المشكلة الحسابيّة الاقتصاديّة الاجتماعيّة لم تُحلَّ إلا برَسْم الأرقام العربيّة المعروفة على يد الخوارزميّ بعد أكثر من قرنٍ. وهي تُذكِّرُ بقصةٍ غير ثابتةٍ تروى عن عالمٍ يونانيّ كان يشتغلُ على معرفة سرّ الضوء والحرارة، فلمّا اكتشفَ اكتشافاً مهماً؛ ذُهِلَ عن نفسه، فصاح بكلمة (يوريكا) بمعنى وجدتها، من غير أن يتنبّه لما حوله، فمات، وقيل: خرجَ للناسِ عرياناً.

أسباب قصور الموضوعية في الترجمة للخليل بن أحمد

سبقت إشارات عابرة إلى بعض أسباب قصور الموضوعيّة في الترجمة للخليل بن أحمد الفراهيديّ، وبروز بعض مظاهر التحيّز، وهذه ظاهرة عامة ليست خاصّة بالترجمة للخليل فحسب؛ ذلك أنَّ فنَّ التراجم في اللغة والأدب قاصر عن علم التراجم في الحديث النبويّ الشريف؛ لأنَّه تقليد له في الاهتمام بالنحاة والأدباء، ولكنّه يفتقد رؤية نحويّة وأدبيّة ولغويّة متطورة لمقياسَي الجرح والتعديل، ومن ثمّ لا يمكن الحديث عن علم تراجم خاصّ بالنحويّين بقدر ما يمكن الحديث عن فنّ تراجم لم يرتقِ إلى مرحلة العلم المضبوط بنظريات منهجيّة، لأنَّ مؤلفي كتبِ التراجم على عمومهم لم ينظروا إلى عملهم نظرة زملائهم علماء الحديث التي تقوم على الحلال والحرام، بل نظروا إلى عملهم نظرة حفظ تواريخ النحاة واللغويّين والأدباء، فاقتربوا من منهجيّة المؤرخين.

(١١١) ينظر كتابه: إنباه الرواة، ج١، ص٣٨١.

وكيف دار الأمر، فأسباب قصور الموضوعيّة في الترجمة للخليل لا عدمها لا تحمل خصوصيّة بقدر ما تحمل عموميّة عَدِّ الخليل أنموذجاً لهذه الظاهرة، وهذه الأسباب هي:

١ - نزعة الإعجاب

لا ضيرَ في أن يعجبَ المترْجِمُ ببعض من يُترجِمُ لهم شرط أن يبقى هذا الإعجاب في إطاره الموضوعيّ، لا أن يكون منطلق الترجمة وغايتها، وفي حالة الترجمة للخليل بن أحمد برز بوضوح أنَّ الإعجاب غطّى بضوئه على الموضوعيّة العلميّة قديماً، وحديثاً حتى أنَّ خديجة الحديثي ذكرت في كتابها عن المدارس النحويّة من غير تحديد المصدر أو المرجع ما نصّه: "قيلَ في الخليل إنَّه أعظم نحويّ حملتْه الأرض بل أعظم نحويّ على مدى العصور"(١١٢). وهذا القول حكمٌ مطلقٌ يستحيل التأكد منه إلا بفرز الأعمال النحويّة للنحاة كافة في العصور كلّها، لكنَّه مبنيّ على حقيقة أنَّ الخليل إمام متميّز على نحوٍ ما في الدرس النحويّ، فتحوّل التميّز إلى حكم بالأفضليّة؛ لهذا عندما أرّخ "علي أبو المكارم" لتاريخ النحو العربيّ حتى أواخر القرن الثانيّ الهجريّ، تجنَّبَ الخوض في حياة الخليل بن أحمد، وقال عن نزعة الإعجاب والأحكام المطلقة: "والواقع أنَّ هذا النمط من الأحكام العامة المطلقة غير مقبول؛ لأنَّه لا يرتكز على أسس موضوعيّة، ولا يعتمد على تحليل علميّ، أمّا المؤرخون المسلمون فلأنَّهم يعجبون بالرجل إلى أبعد غايات الإعجاب، يبهرهم ذكاؤه، ويهزّهم سلوكه، ولكنَّ الإعجاب موقف عاطفيّ لا يصمد مع التحليل، ومن ثمَّ فإنَّه لا يجب أن يأسرنا هذا الإعجاب فننزلق إلى إصدار مثل هذه الأحكام"(١١٣).

٢ - تضخّم النزعة الأدبيّة

مرَّ بنا أنَّ المرزبانيّ في ترجمته للخليل حوَّل الخليل من شخصيّة نحويّة ولغويّة في الأساس إلى شخصيّة شعريّة، فملأ ترجمته بمائة وثلاثة وعشرين بيتاً من شعره أو الشعر المنسوب إليه، وهو بهذا الصنيع يضخّم الصورة الأدبيّة للخليل على حساب تصغير الصورة النحويّة واللغويّة؛ لأنَّ المترجمين عامةً يجعلون البحث عن الشعر من أهمِّ مطالبهم

(١١٢) المدارس النحويّة، خديجة الحديثي، ص ٦٦.

(١١٣) تاريخ النحو العربيّ حتى أواخر القرن الثاني الهجريّ، علي أبو المكارم، ص ١٠٦.

حتى إذا وجدوا للنحويّ بيتاً واحداً ذكروه وعلّقوا عليه، وهذا ما توصّل إليه رجب عن الجواد إبراهيم في دراسته مصادر السيوطيّ -وهو لا يختلف عن سائر المترجمين كثيرا- في التأريخ لنحاة الأندلس دراسةً توثيقيّة في ضوء بغية الوعاة، فقال: " في كثير من الأحيان ينسى السيوطيّ أنَّه يؤرِّخ لنحويّين، ويتصوّر أنَّهم شعراء، فنجده يحشد في الترجمة شعراً للنحويّ، أو شعراً قيلَ في النحويّ "(١١٤). وقد يكون الهدف من هذه النزعة الأدبيّة تحبيب النحويّ إلى الأجيال، ولا سيّما أنَّ المترجمين يختارون الأبيات التي فيها الموعظة والنصح والحكمة فاختيارهم مبنيّ على المضمون الأخلاقيّ للبيت قبل الصورة الشعريّة والمقاييس النقديّة.

٣ - النزعة الإخباريّة

إنَّ النحويّ لا يدخل تاريخ النحو لأنَّه صاحب أخبار طريفة، بل يدخل تاريخ النحو بأعماله العلميّة التي تبوِّئُه مكانته بين النحاة؛ ولهذا فالترجمة ليست مجموعة من الأخبار المرويّة عن المترَجَم له، تساق في إطار الإعجاب به غالباً، بل هي تحليل في الأساس للجانب العلميّ من شخصيّة النحويّ المترجَم له؛ وعلى هذا فقد غابت الآراء العلميّة للنحاة عن كتب التراجم أو اختفتْ وراء قصصهم وطرائفهم وأخبارهم، حتى يمكن القول: إنَّ كتب التراجم مسؤولة إلى حدٍّ كبير عن ظاهرة سَلْك بعض النحاة في كتب طرائف الحمقى والمغفّلين، ولهذا لا تصوّر كتب التراجم بدقّة مكانة النحاة بقدر ما تصوِّرُها كتبُهم الحقيقيّة في النحو والصرف واللغة.

ولقد كان نصيب الخليل بن أحمد من الأخبار وافراً، لكنَّها في مجملها أخبار قاصرة عن تبيين مكانته الحقيقيّة التي تظهر للباحثين على صفحات كتاب سيبويه، ومعجم العين، وتطبيقات عروض الشعر العربيّ، ذلك أنَّ كتب التراجم تصوّر الخليل حكيماً، في حين يُظهِرُه كتاب سيبويه ومعجم العين وعلم العروض عالماً نحويّاً ولغويّا وعروضيّا، ليس بإطلاق هذه الألقاب عليه بل بإظهار أبعادها العلميّة في آرائه ومناقشاته واختياراته في النحو والصرف واللغة والعروض.

---

(١١٤) مصادر السيوطيّ في التأريخ لنحاة الأندلس، رجب عبد الجواد إبراهيم، ص ٢١٣.

ويمكن التماس العذر للمترجمين في انسياقهم وراء النزعة الإخباريّة بأنَّهم تجنّبوا مناقشة الآراء وعرض الكتب لكي يتركوا للباحث والقارئ حريّة الحكم على الشخصيّة المترجَم لها، في حين يطلعونه هم على ما لا تعرضُه كتبُهم عادة من أخبارهم؛ كأنَّهم نظروا إلى أخبار النحاة على أنّها جزء من حقيقتهم الإنسانيّة المؤثّرة في شخصيّتهم العلميّة، لكنَّهم أشاحوا النظر غالباً عن تدقيق ما يرونه من أخبار؛ لهذا ينبغي أخذ أخبارهم بكثير من الحيطة والحذر، لأنَّهم في نقلها إن لم يكونوا صدى لأهوائهم؛ فَهُم صدى لأهواءِ من نقلوا عنهم.

وكيفَ دارَ الأمرُ، فقد كانت ثلاثة من الكتب قريبةً إلى حدٍّ كبيرٍ من الموضوعيّة في الترجمة للخليل بن أحمد، هي:

١ – مراتب النحويّين لأبي الطيّب اللغويّ.

٢ – أخبار النحويّين البصريّين لأبي سعيد السيرافيّ.

٣ – طبقات النحويّين واللغويّين للزبيديّ.

يُضافُ إلى هذه الكتب الثلاثة: كتاب البغية للسيوطيّ مع أنَّه أصغر حجماً في الترجمة للخليل من كتابه الآخر "التحفة"؛ لأنَّ سعيه في "البغية" للاختصار جعله يختار الراجحَ من الأقوال والأخبار.

وبيِّنٌ أنَّ الكتب الأقرب للموضوعيّة في رأينا هي الأقرب زماناً إلى عصر الخليل بن أحمد الفراهيديّ.

٤ - الاختلاف المذهبيّ والقوميّ

يُحمَد للنحاة أنَّهم يشتغلون على لسان واحد يجمعُهم سَدَنة للغة القرآن الكريم، لهذا قلَّ أن تظهر في أعمالهم أو أخبارهم النزعة الطائفة أو المذهبيّة أو القوميّة، لكنَّ شخصيّة الخليل استثنائيّة، استحوذت على احترام المسلمين عامة حتى إذا نجمت بينهم الطوائفُ والمذاهبُ أرادَت بعضُ الطوائف الافتخار بأنَّه منها، مثل الشيعة والإباضيّة والسُّنّة، كما أراد الفرسُ الافتخار به على أنَّه من أصل فارسيّ كما زعم الأصفهانيّ، في حين أطبق العرب على عروبته، فتكون شخصيّته قد دخلت معترك التنافس الطائفيّ والمذهبيّ والقوميّ

الشعوبيّ منذ القديم، وفي العصر الحديث يجري التأكيدُ على أنَّه عُمانيّ، لا بصريّ مع أنَّ الحقيقة العلميّة تؤكّدُ أنَّه قد خرجت به أسرته من عُمان وعمره سنتان اثنتان فقط، فعُمان بلدُ المولد والبصرة بلد النشأة والمعاش والممات، وبحث المسألة غير ذي بال لأنَّنا جميعاً شركاء في تراثنا العربيّ الإسلاميّ بمختلف أطيافه وشعوبه بمفهوم الامتداد المكانيّ والزمانيّ للسان العربيّ أينما حلَّ، وللمئذنة أينما صارت.

المصادر والمراجع

١. أخبار النحويّين البصريّين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض، السيرافيّ، الحسن بن عبدالله (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م) تحقيق: محمد إبراهيم البنا، ط١، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥م.

٢. ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسيّ، أثير الدين محمد يوسف (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م) تحقيق: رجب عثمان محمد، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣. إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويّين، اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) تحقيق: عبد المجيد دياب، ط١، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرياض، ١٩٨٦م.

٤. الأغاني، أبو الفرج الأصبهانيّ، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/٨٩٧م) الطبعة الثانية من نشرة دار الفكر، بيروت.

٥. إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطيّ، جمال الدين علي بن يوسف (ت٦٢٤هـ/١٢٢٦م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الفكر العربيّ ومؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت، ١٩٨٦م.

٦. بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة، السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.

٧. البلغة في تاريخ أئمة اللغة، الفيروز أباديّ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) تحقيق: محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، سورية، ١٩٧٢م.

٨. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م) ط١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٠م.

٩. تاريخ الرسُل والملوك المعروف بتاريخ الطبريّ، الطبريّ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) ط٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.

١٠. تاريخ العلماء النحويّين من البصريّين والكوفيّين وغيرهم، القاضي المفضَّل، المفضَّل بن محمد بن مسعر (ت٤٤٢هـ/١٠٥٠م) تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢،دار هجر، مصر، ١٩٩٢م.

١١. تاريخ النحو العربيّ حتى أواخر القرن الثاني الهجريّ، علي أبو المكارم، ط١، القاهرة الحديثة للطباعة، القاهرة، ١٩٧١م.

١٢. تاريخ النحو العربيّ في المشرق والمغرب، محمد المختار ولد ابّاه، منشورات المنظّمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة–إيسيسكو– ١٩٩٦م.

١٣. تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) بتحقيقنا بالاشتراك مع: سهى نعجة، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٥م.

١٤. التنبيه على حدوث التصحيف، حمزة الأصبهاني، ابن الحسن (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م) تحقيق: محمد أسعد طلس، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣م.

١٥. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزّيّ، جمال الدين يوسف (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) تحقيق: بشّار عوّاد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.

١٦. حول النظائر الإيقاعيّة للشعر العربيّ، محمد أحمد وريّث، ط١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ١٩٨٥م.

١٧. الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري: صانع النحو وواضع العروض، رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.

١٨. الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أعماله ومنهجه، مهدي المخزومي، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٦٠م.

١٩. الخليل بن أحمد: العالم العبقريّ، محمد صالح ناصر، مجلة الحياة، جمعيّة التراث، الجزائر، العدد السادس، ٢٠٠٢م.

٢٠. الدراسات اللغويّة عند العرب حتى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين، ط١، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠م.

٢١. ديوان الشافعيّ، محمد بن إدريس (ت٢٠٤هـ/٨٢٠م) تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار ابن زيدون، بيروت، د.ت.

٢٢. رسالة همزة أمْحَمّد وكسْر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد، أطفيّش، قطب الأئمة أمحمد بن يوسف (ت١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) تحقيق: حسن خميس الملخ، مجلة الحياة، جمعيّة التراث، الجزائر، العدد السادس، ٢٠٠٢م.

٢٣. سِيَر أعلام النبلاء، الذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م) أشرف على تحقيقه: شُعيب الأرناؤوط، ط١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٤. شرح مقامات الحريريّ، الشريشيّ، أحمد بن عبد المؤمن (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٩٢م.

٢٥. الصاحبيّ، ابن فارس، أحمد (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٦. طبقات النحويّين واللغويّين، الزّبيدي، محمد بن الحسن الأندلسيّ (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

٢٧. عشرة شعراء مقلون، حاتم الضامن، العراق، ١٩٨٧م.

٢٨. العقد الفريد، ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) تحقيق: عبد المجيد الترحيني، ط٣، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٩. عناصر يونانيّة في الفكر اللغويّ العربيّ، كيس فيرستيج، ترجمة: محمود كناكري، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠٠٠م.

٣٠. الفهرست، النديم، محمد بن إسحاق (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) ضبط وتعليق: يوسف علي طويل، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٦م.

٣١. في التحليل الاجتماعيّ للظاهرة النحويّة: المثال النحويّ في كتاب سيبويه بين الدلالة الاجتماعيّة والقاعدة النحويّة، حسن خميس الملخ، مجلة كليّة الدراسات الإسلاميّة والعربيّة، الإمارات العربيّة المتحدة، العدد العشرون، ٢٠٠١م.

٣٢. قاموس الرجال، التستريّ، محمد تقي (ت ١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ط٢، مؤسسة النشر الإسلاميّ، إيران، ١٩٩٢م.

٣٣. كتاب الإبانة في اللغة العربيّة، العَوتبيّ، سلمة بن مسلم الصُّحاريّ، تحقيق: عبد الكريم خليفة، نصرت عبد الرحمن، وصلاح جرّار، ومحمد حسن عوّاد، ط١، منشورات وزارة التراث، سلطنة عُمان، ١٩٩٩م.

٣٤. كتاب العين في ضوء النقد اللغويّ، نعيم سلمان البدري، ط١، دار أسامة، الأردن، ١٩٩٩م.

٣٥. لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م) طبعة دار صادر، بيروت.

٣٦. اللسانيّات الرياضيّة والعروض، مصطفى حركات، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨م.

٣٧. المختار من كتاب الفصوص، صاعد البغداديّ، صاعد بن الحسين (ت٤١٠هـ/١٠١٩م) اختيار: مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠١م.

٣٨. المدارس العروضيّة في الشعر العربيّ، عبد الرؤوف بابكر السيد، ط١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ١٩٨٥م.

٣٩. المدارس النحويّة، خديجة الحديثي، ط٣، دار الأمل، الأردن، ٢٠٠٢م.

٤٠. مرآة الجِنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبَر من حوادث الزمان، اليافعيّ، عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٧م.

٤١. مراتب النحويّين، أبو الطيّب اللغويّ، عبد الواحد بن عليّ (ت٣٥١هـ/٩٦٢م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٤م.

٤٢. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمريّ، شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) السفر السابع، تحقيق: عبد العباس عبد الجاسم، المجمع الثقافيّ، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.

٤٣. مشارق أنوار العقول، السالميّ، نور الدين عبدالله بن حميد، تصحيح وتعليق: أحمد بن أحمد الخليليّ، دار الحكمة، دمشق، ١٩٩٥م.

٤٤. مصادر السيوطيّ في التأريخ لنحاة الأندلس دراسة توثيقيّة في ضوء بغية الوعاة، رجب عبد الجواد إبراهيم، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٤٥. معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م.

٤٦. المفصّل في تاريخ النحو العربي قبل سيبويه، محمد خير الحلواني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م.

٤٧. مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربيّ، جعفر نايف عبابنة، ط١، دار الفكر، الأردن، ١٩٨٤م.

٤٨. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزيّ، عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٢م.

٤٩. النحو العربيّ: "نشأته، تطوّره، مدارسه، رجاله"، صلاح روّاي، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥٠. نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، ابن الأنباريّ، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٥٧٧هـ/١١٨١م) تحقيق: إبراهيم السامرائيّ، ط٣، دار المنار، الأردن، ١٩٨٥م.

٥١. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، المرزبانيّ، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) اختصار: أبي المحاسن يوسف بن أحمد اليغموريّ (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) تحقيق: رودُلف زلهايم، نشر دار فرانتس شتاينر، ألمانيا، طبع بيروت، ١٩٦٤م.

٥٢. الوافي بالوفيات، الصفديّ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ٢٠٠٠م.

٥٣. وَفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ نشر.

Abstract

The Biography of al-khalil b-Ahmed al-Frahidi Between Objectivity and Partiality: A study in the Authenticity of Some Biographical Works.

Dr. Hassan Khamis al-Malkh.

This paper aims to discuss the authenticity of some biographical works which tackled the biography of al-khalil b.Ahmed al-Frahidi either objectively or partially. A sharp inconsistency is very clear in the different biographies to the extent that later biographers give varied information about al-khail, his origins, religious affiliation, travels and his relations with the Ummayds and the Abassids, more than his contemporaries. The researcher reaches the conclusion that some oral traditions and false information were added to his biography because so many groupings and nations were trying to annex al-khalil to their prominent scholars.

UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

ACADEMIC REFEREED JOURNAL OF
ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE

EDITOR IN-CHIEF
Dr. Ahmed Hassani

EDITORIAL BOARD
Dr. Asma Ahmed Alowais
Dr. Majid Abdulsalam
Dr. Al-Rifai Abdel Hafiz
Dr. Cherif Mihoubi

ISSUE NO. 36
Dhu'l-hijja, 1429H - December 2008CE

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the **"Ulrich's International Periodicals Directory"**
under record No. **157016**

e-mail: iascm@emirates.net.ae

United Arab Emirates
Dubai

ISSN 1607-209X

ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE MAGAZINE

Academic Refereed Journal

ISSUE NO. 36
Dhu'l-hijja, 1429H - December 2008CE
E-mail: iascm@emirates.net.ae